صِنَاعَةُ طَالِبِ عِلْمٍ مَاهِرٍ

الطبعة الأولى

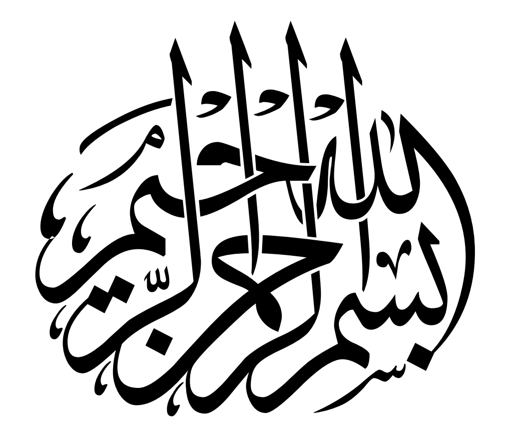
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

صِنَاعَةُ طَالِبِ عِلْمٍ مَاهِرٍ

يحوي على تجارب وقواعد ونصائح
تُعين على إتقان مهارة القراءة والكتابة

تأليف

أحْمَد بْن نَاصِر الطَّيَّار





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين، **أما بعد:**

فإنّ طريق تحصيل العلم، والتعامل الأمثل مع الكتب، وكيفية الاستفادة منها، والقدرةَ على التصنيف: من أعظم ما يشغل أذهان طلاب العلم ويُقلقهم.

وقد كنت قد دوّنتُ على مدى خمسة أعوام تقريبًا بعض الخواطر في هذا الموضوع، وكتبتُ فيه العديد من القواعد والسبل، التي هي ـ بعد توفيق الله تعالى ـ من أعظم أسباب إتقان مهارة القراءة والكتابة، ثم راجعتُ ما كتبت، وزدتُ ونقّحتُ ورتَّبْت، ثم عزمتُ على إخراجه؛ رجاء أنْ ينفع الله به.

فهذا الكتاب تمخّض عن تجارب، وكثرةِ استماعٍ لهموم طلاب العلم، والوقوف على ما يُعانون منه، والقصور والخلل الحاصل عند كثير منهم، وجعلت أدوّن الدواء لهذه الأدواء، والمخرج من هذا البلاء.

وهو مكمّلٌ لكتابي: «آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه»، الذي ذكرت فيه الكثير من الأبحاث والطرق والقواعد التي يحتاجها

طالب العلم، ولا يمكن له أن يصل إلى مرحلة الرسوخ في العلم والفهم إلا بها.

وطالب العلم إذا أراد أن يكون ماهرًا حاذقًا، وراسخًا متمكّنًا، ونافعًا مباركًا، فعليه بإتقان **ثلاثة فنونٍ**:

الفنّ الأول: **القراءة الجادّة المثمرة.**

الفنّ الثاني: **التصانيف النافعة.**

الفنّ الثالثُ: **العمل بالعلم وتعليمُه، والتأدّب بآدابِه.**

وبعض طلاب العلم قد يتقنون أحد هذه الفنون، ويجهلون البقيّة أو يُهملونها؛ فلْيحرص طالبُ العلم على إتقانها كلّها؛ ليعمّ نفعُه، ويُبارَك في علمه وعمله.

هذا؛ وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب، إنه جوادٌ كريم.

وقد راجع هذا الكتاب نخبةٌ من المشايخ وطلاب العلم الفضلاء، الذين أكرموني بملحوظاتهم، وسداد آرائهم، وصواب استدراكاتهم، جزاهم الله خيرًا، ونفع بهم، وجعل ما قدموا في ميزان حسناتهم.

أحمد بن ناصر الطيار
خطيب جامع
عبد الله بن نوفل بالزلفي
والداعية في وزارة الشؤون الإسلامية
البريد الإلكتروني:
ahmed0411@gmail.com
رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦
٣١/٧/١٤٤٠هـ

الفنّ الأول

القراءة الجادّة المثمرة

طالب العلم التقي المخلص الصادق لا يزال يقرأ، ويُطالع، ويقلّب الكتب النافعة؛ قاصدًا بذلك البحث عما يُرضي ربه، ويقربه إليه، وليس قصده مجرد زيادة المعلومات، وإشباع رغبته ونهمتِه في القراءة والحفظ والرسوخ العلميّ؛ فثمرةُ العلم العمل.

وإليك ـ أخي طالب العلم الموفق ـ هذه الوصايا؛ لتكون قراءتُك نافعةً مثمرة مباركة:

١ «الإخلاص في طلب العلم»:

يا طالب العلم، اسأل نفسك: لماذا أقرأ؟

وقبل أن تجيب على السؤال الكبير المهمّ، سأذكر لك جوابي عن هذا السؤال في بداية طلبي للعلم، وجوابي بعد سنوات من بداية الطلب: كنت في بداية طلبي للعلم أظن أني إنما أطلبه لله تعالى خالصًا لوجهه، وحينما مررت على قول الوليد بن مسلم رَحَمَهُ ٱللَّهُ: سألتُ الأوزاعيَّ، وسعيدَ بن عبد العزيز وابن جريج رحمهم الله: لم طلبتم العلم؟ كلهم يقول: طلبتُه لنفسي، غير أن ابن جريج فإنه قال: طلبتُه للناس.اهـ[(١)].

ولم يقولوا: طلبناه لله!

وقولِ مَعْمَر ومجاهد رحمهما الله: لقد طلبنا هذا الشأن وما لنا فيه نيَّة، ثم رَزَقنَا الله النيَّة من بعدُ[(٢)].

وقولِ هشام الدَّستُوائي رَحَمَهُ ٱللَّهُ: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبتُ يومًا قطُّ أطلبُ الحديث أُريدُ به وجهَ الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الذهبي رَحَمَهُ ٱللَّهُ: واللهِ ولا أنا، فقد كان السَّلَفُ يطلبون العلم لله فَنَبلوا، وصاروا أئمةً يُقتدى بهم، وطلبه قومٌ منهم أولًا لا لله، وحصَّلوه، ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرَّهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطَّريق، كما قال مُجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبيرُ نِيَّة، ثم رزق الله النيةَ بعدُ، وبعضهم يقولُ: طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٥.

(٢) تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٧٢، ٢/ ٥٣٠.

يكونَ إلا لله. فهذا أيضًا حسن. ثم نشروه بِنِيَّةٍ صالحة.اهـ[(١)].

وكنت أتعجب من كلامهم، وأجد إشكالًا كبيرًا، حيث أرى من نفسي أني أطلبه لله، فهل أنا أحسن حالًا منهم؟!

والآن عرفت وفهمت ـ والله ـ، فقد كنت إنما طلبته لنفسي لأنْهَم منه، وأستمتع بالقراءة وحضور مجالس العلم، ثم طلبت بعضه للناس، حيث كنت أجد حرجًا إذا سُئلتُ فلم أعرف الجواب؛ فحرصت على القراءة وجرد المطولات حتى أُلِمَّ بالعلم، وأجيب على كلّ من سألني، وإذا حضرت مجلسًا فيه طلاب علم وجرى نقاش بادرت بإبداء ما عندي، وكنت لا أشك أني من أخلص الناس في طلب العلم، وحينما مرت السنون، ونهلتُ من معين أهل العلم وكتبهم: عرفت أنّ عندي شوائبَ تكدّر صفو الإخلاص، وأسأل الله تعالى أن يجعلني من المخلصين لله في العلم والدعوة ونشر العلم.

قال العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: المحب الصادق إذا نطق نطق لله وَبِاللهِ، وإن سكت سكت لله، وإن تحرّك فبأمر الله، وإن سكن فسكونه استعانة على مرضات الله، فَهُوَ لله وَبِاللهِ وَمَعَ الله.

وَمَعْلُوم أنَّ صَاحب هَذَا الْمقَام أحوج خلق الله إلى الْعلم؛ فَإِنَّهُ لَا تتَمَيَّز لَهُ الْحَرَكَة المحبوبة لله من غَيرهَا، وَلَا السّكُون المحبوب لَهُ من غَيره إلا بِالْعلمِ، فَلَيْسَتْ حَاجته إلى الْعلم كحاجة من طلب الْعلم لذاته ولأنه فِي نَفسه صفة كَمَال؛ بل حَاجته إليه كحاجته إلى مَا بِهِ قوام نَفسه وذاته.اهـ[(٢)].

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٨٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٨٩.

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على قول مَعْمَر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان يُقال: إن الرَّجل يطلبُ العلمَ لغير الله فيأبَى عليه العِلمُ حتى يكون لله: نعم يطلبه أولًا والحاملُ له حبُّ العلم، وحبُّ إزالة الجهل عنه، وحب الوظائف، ونحوُ ذلك، ولم يكن عَلِمَ وجوب الإخلاص فيه ولا صِدْقَ النية، فإذا عَلِمَ حاسبَ نفسَه وخاف من وَبَالِ قصدِه، فتجيئُه النِّية الصَّالحة كلُّها أو بعضها، وقد يتوبُ من نيته الفاسدة ويندمُ.

وعلامة ذلك:

١ ـ أنه يُقْصِر من الدعاوى[١].

٢ ـ وحبِّ المناظرة.

٣ ـ ومِن قصد التَّكثُّر بعلمه.

٤ ـ ويُزري على نفسه، فإن تكثَّر بعلمه أو قال: أنا أعلمُ مِن فلان فبعدًا له.اهـ[٢].

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كثير من طلاب العلم يقصدون بطلب العلم التوسع في العلم، وهذا لا شكّ نقص، طالب العلم يجب أن يقصد بطلبِه نصرةَ الدين وحمايته.اهـ.

وبعد هذا الاستعراض لأقوال بعض العلماء استطعتُ أنْ أُشخِّصَ بواعثي لطلب العلم:

فقد كنت أطلب العلم لذاته محبةً في العلم، ولأنه فِي نَفسه صفة كَمَال، ورغبةً في إزالة الجهل عني، وحبًّا في التوسع فيه.

(١) أي: لا يزكّي نفسه ويجزم بأنه طلب العلم لله خالصًا.

(٢) تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/ ٦٧٢.

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا نطلبه لحَاجتنا إليه كحاجتنا إلى مَا بِهِ قوام أنفسنا، وأنْ يعيذنا مِن حبّ المناظرة والتَّكثُّر بعلومنا، ولا حول ولا قوة لنا إلا به .

فصحِّح نيتك ـ أخي طالب العلم ـ واطلبه لحَاجتك إليه كحاجتك إلى مَا بِهِ قوام نَفسك وذاتك، لا لمجرد حبّك للعلم وتلذّذك به، فشتان بين النيّتين!



٢ «العلم بالله ﷻ أجلّ العلوم وأهمها وأولاها بالعناية والقصد»:

بعد أن صححت ـ **يا طالب العلم** ـ قصدك في طلب العلم، ابذل قصارى جهدك في طلب أهمّ العلوم وأوجبها، ألا وهو العلم بالله تعالى، وقد غفل عنه الكثير من طلاب العلم، فحُرموا بسبب ذلك خيرًا عظيمًا، وكنزًا ثمينًا.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثبت بالدليل شرف العلم وفضله، إلا أن طلاب العلم افترقوا، فكلٌّ تدعوه نفسه إلى شيء، فمنهم من أذهب عمره في القراءات، وذاك تفريط في العمر.. ومنهم من يتشاغل بالنحو وعلله فحسب.. وإنما ينبغي أن يأخذ من كل علم طرفًا، ثم يهتم بالفقه، ثم ينظر في مقصود العلوم، وهو المعاملة لله سبحانه، والمعرفة به، والحب له.

ومعرفة المعبود وعظمته، وما يستحقه، والنظر في سير الرسول ﷺ وصحابته، والتأدب بآدابهم، وفهم ما نقل عنهم: هو العلم النافع الذي يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال.اهـ[1].

فكلَّما ترقى طالب العلم في العلم ومعرفة حق الله عليه، ومعرفة عيوبه، وقارن حاله بحال النبي ﷺ والسلف الصالح: ازدرى نفسه وأيقن أنه مقصر مفرط، فتزكو نفسُه بالتواضع سجيَّةً لا تكلُّفًا، وتعلو همَّتُه في طلب الرقيّ في العبادة والورع وحسن الخلق والتقوى.

---

(١) صيد الخاطر: ٣٤٤، ٣٤٧.

وهذا من أعظم ثمار العلم بالله تعالى.

واعلم أنّ الْعِلْمَ **أربعةُ أَقْسَامٍ**:

القسم الأول: عِلْمٌ بِاَللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ، وَفِي مِثْلِهِ أَنْزَلَ اللهُ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ وَنَحْوَهُمَا.

وَالْقِسْمُ الثَّانِي: الْعِلْمُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِمَّا كَانَ مِن الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ، وَمَا يَكُونُ مِن الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ الْأُمُورِ الْحَاضِرَةِ، وَفِي مِثْلِ هَذَا أَنْزَلَ اللهُ آيَاتِ الْقَصَصِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَصِفَةَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: الْعِلْمُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقُلُوبِ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللهِ مِنْ مَعَارِفِ الْقُلُوبِ وَأَحْوَالِهَا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: كَمَالُ النَّفْسِ لَيْسَ فِي مُجَرَّدِ الْعِلْمِ؛ بَلْ لَا بُدَّ مَعَ الْعِلْمِ بِاَللهِ مِنْ مَحَبَّتِهِ، وَعِبَادَتِهِ، وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ، فَهَذَا عَمَلُ النَّفْسِ وَإِرَادَتُهَا، وَذَاكَ عِلْمِهَا وَمَعْرِفَتِهَا. اهـ[1].

وَالْقِسْمُ الرابع: الْعِلْمُ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ الْأُمُورِ الْمُتَعَلِّقَةِ بالْجَوَارِحِ.

وَهَذَا الْعِلْمُ يَنْدَرِجُ فِيهِ مَا وُجِدَ فِي كُتُبِ الْفُقَهَاءِ مِن الْعِلْمِ بِأَحْكَامِ الْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنَّ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ جُزْءٍ مِنْ جُزْءٍ مِنْ عِلْمِ الدِّينِ. اهـ[2].

فالذي يعكف على كتب الفقه والأحكام، لم يَحُزْ إلا على الجزء اليسير من العلم والدين.

(١) مجموع الفتاوى ٢/ ٩٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٣٩٦ ـ ٣٩٨.

فلا ينبغي لطالب العلم أن يقتصر على علمٍ دون علمٍ قدر الإمكان؛ كمن يقتصر على علمِ فقه الفروع الفقهية، ويُهْمِلُ فقه الأصول الإيمانية، والأحوال القلبية.

«وكلّ علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك إذا رغب فيه وحرص عليه؛ لأنه نتيجة الذهن وثمرة العقل، إلا علم الإيمان واليقين، فإنه لا يتأتى ظهور مشاهدته والكلام في حقائقه إلا لمؤمن موقن»[(١)].

ولذا؛ تجد المستشرقين الكفار قد كتبوا في أكثر العلوم الإسلامية، ولم يكتب أحدهم في هذا العلم العظيم.

وهذا دليل واضحٌ على فضل علم المعرفة على غيره، وقد ذكر العلماء أنّ العِلْم بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ هو علم الصديقين، وأن من كان له منه نصيب فهو من المقربين، وينال درجة أصحاب اليمين.

وإذا عظم علمه بالله ذاق حلاوة الإيمان ولذة الطاعة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: إنّ اللذة تتبع الشعور والمحبة، فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم. اهـ[(٢)].

وأهل العلم الصادقون ينوون في طلبهم للعلم معرفة الله والقرب منه ورضاه، فلذلك أفلحوا ووُفقوا وسُعدوا، قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي رَحِمَهُ اللهُ: كنت إبّان طلبي في الأقطار، ودرسي آناء الليل والنهار،

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، لأبي طالب المكي (المتوفى ٣٨٦هـ) ١/ ٢٩٤.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ١/ ٣٣.

ولقائي أولي البصائر والأبصار، لا أمل لي إلَّا التشوف إلى المقصد الأسنى، المنتحى في كل معنى، وهو معرفة الله تعالى.اهـ[(١)].

وجلّ العلوم لا تُراد لذاتها؛ بل هي وسيلة إلى غيرها، سوى العلم بالله تعالى، قال ابن القيم رَحِمَهُ الله: إِنَّ الْعلم بِالله وأسمائه وَصِفَاته هُوَ أشرف الْعُلُوم على الإطلاق، وَهُوَ مَطْلُوب لنَفسِهِ مُرَاد لذاته، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢] فقد أخبر سُبْحَانَهُ أنه خلق السَّمَوَات وَالْأَرْض وَنزل الأمر بَينهُنَّ ليَعلم عباده أنه بِكُل شَيْء عليم، وعَلى كل شَيْء قدير، فَهَذَا الْعلم هُوَ غَايَة الْخلق الْمَطْلُوبَة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالعلم بوحدانيته تَعَالَى وَأَنه لَا إِلَه إلا هُوَ مَطْلُوب لذاته، وإن كَانَ لَا يكْتَفى بِهِ وَحده؛ بل لَا بُد مَعَه من عِبَادَته وَحده لَا شريك لَهُ، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما:

١ ـ أن يعرف الرب تَعَالَى بأسمائه وَصِفَاته وأفعاله وأحكامه.

٢ ـ وأن يعبد بموجبها ومقتضاها.

فَكَمَا أن عِبَادَته مَطْلُوبَة مُرَادة لذاتها، فَكَذَلِك الْعلم بِهِ ومعرفته.اهـ[(٢)].

وبعض من يَدْرُس كتب العقيدة أو يُدرّسها: لا يتبادر إلى ذهنه إلا العناية بالعقيدة النظرية العلميّة، ولا شك في أهميتها وفضلها، ولكن قلّ

(١) قانون التأويل ص٤٥٤.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ١/ ٥٣٤.

من ضمّ إلى ذلك العناية بالعقيدة العملية، التي هي الأعمال والأحوال القلبية، من صدق التوكل على الله تعالى، ومحبته، ورجائه والخوف منه، والإقبال عليه، والتضحية لأجله.

فتجد من يتقن معنى حبّ الله علمًا نظريًّا، ولا يتقن معنى الحبّ عملًا وحالًا، فترى قلبه لم يستنر بحب الله محبةً تطغى على كلّ محبوباته، ولم يذق طعم الأنس به، والرضا به ربًّا ﷻ.

وهذا خلل في دراسة العقيدة.

ولو جهل رجل التفاصيل الموجودة في كتب العقيدة، ولم يعرف سوى الفرض عليه؛ كمعنى التوحيد، وخطر الشرك ومعناه، ولكنه عالم بالعقيدة العملية؛ كإخلاصه لله، وصدقه معه، وتوكله عليه، وبغضه للشرك وأهله، وحبه للتوحيد وأهله: لسعد ونجح وأفلح ونجى.

ولو كان عالِمًا بالتفاصيل الموجودة في كتب العقيدة، وحفظها، ولكنّ قلّت عنايتُه بالعقيدة العملية لكان على خطر، وقد يكون علمُه حجةً عليه في عدم عمله بما علم.

ولعلّ السبب الأعظم ـ والله أعلم ـ الذي جعل بعض المسلمين لا يُوفَّق في الاهتمام بالعقيدة العمليّة، هو عدم إصلاحه لِمَا بينه وبين الله تعالى، فتجده بارعًا في العلم النظريّ، لكنه مخفقٌ ومقصِّرٌ في التطبيق والعمل، والله المستعان.

وعنايتك ـ أخي طالب العلم ـ بجانب العلم بالله سبحانه، له ثمراتٌ وفوائد كثيرة جدًّا، من أهمّها:

١ ـ أنه السبيل الوحيد لفلاحك ونجاتك في الدنيا والآخرة، فلو جمعت علوم الدنيا كلّها وجهلت هذا العلم لم تنفعك يوم القيامة.

٢ ـ أنه الطريق الصحيح لصلاح قلبك، وسلامته من الأمراض والآفات، التي ابتُلي بها كثير من الناس.

قال أحد طلاب العلم: «منذ أنْ وقفتُ على كلام شيخ الإسلام ابن تيمية هذا تغيرت نظرتي تجاه العلم؛ حيث كنت أظنّ العلم هو العلم النظري، فلذا كنت أستكثر منه، وكنت في غفلة عن صلاح قلبي، والعناية به، والتعلق بالله، والبحث عن العلم به سبحانه.

أما الآن: فقد اعتنيت بالعلم بالله تعالى، وأصبح أكثر همّي وشغلي هو صلاح قلبي وسريرتي، تربيةً ومجاهدةً ومحاسبة؛ لأصل للغاية العظمى، وهي معرفة ربي ، وتعظيمُه ومحبتُه».اهـ.

فإذا استنار قلبك بالعلم بالله ومعرفته، خرج منه كلّ تعلّق بالدنيا، والالتفات إلى الخلق، وحبّ الشهرة، وأصبح همّك رضا الله تعالى والإقبال إليه.

قال أحد طلاب العلم: كنت في بداية طلب العلم أفرح إذا استفتاني الناس، وكان من أعظم أمنياتي أنْ أجمع علمًا يؤهلني للفتوى والإجابة على أسئلة الناس.

وإذا اتصل عليّ سائلٌ وأنا في مجلس، شعرت بالفرح وهم يروني أفتي وأُجيب على أسئلة الناس، حيث بلغت في العلم منزلة شريفة، جعلت الناس يستفتوني.

قال: وبعد أن منّ ربي عليّ بمعرفته والأنس به: ذهب عني كلّ هذا بحمد الله، وإذا اتصل عليّ أحد المستفتين طلبتُ منه أن يتصل عليّ بعد الخروج من المجلس، وأخاطبه بعبارة لا يفهم منها من حولي أنّ المتصل من المستفتين.

٣ «الفرق بين محبّ العلم وبين طالب العلم»:

أخي طالب العلم: هل أنت من محبّي العلم، أم من طالبي العلم؟

لأنّ هناك فرقًا كبيرًا، وبونًا شاسعًا، بين محبّ العلم وبين طالب العلم.

فطالب العلم:

١ ـ هو الذي يطلبه بجدّ، وتخطيط، وحبّ، وتضحية.

٢ ـ ويقضي كلّ وقته أو جلّه في العلم بكلّ وسيلة: بالبحث، وضبط المتون، وقراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ، والاختصارات، وحضور الدروس العلمية وفق منهجيّة منضبطة.

٣ ـ ويقرأ الكتب التي تنفعه وتُؤصّله، ولو كان لا يستمتع بها.

ولسان حاله: لا أترك القراءة والبحث إلا لحاجة أو ضرورة، وأقرأ ما ينفعني ويؤصلني؛ فالعلم بالنسبة له: غذاؤه وروحه وقرة عينه.

وتراه محقّقًا، لا مجرد ناقل ومتذوّق، ومُختارًا من أقوال العلماء ما عضدته أدلّةُ الكتاب والسُّنَّة.

وطالب العلم الذي هذا هو حاله: لا يُفارق العلم والقراءة، حتى تُفارق روحُه جسده؛ بل لو طُلب منه أنْ يترك مكتبته ويتقاضى عشرات الآلاف شهريًّا لَمَا قبِل ذلك.

وأما محبّ العلم:

فهو يحب القراءة في الكتب التي يهواها، ولسان حاله: أقرأ متى فرغت، وما أحببت، فالعلم بالنسبة له: فضلةٌ وتسليةٌ ومتعة.

ويحضر دروس العلماء بلا جدّيّةٍ، ولا ترتيب، ولا خطة واضحة.

وقد يكون محبُّ العلم أكثرَ من طالب العلم اطلاعًا، وقراءةً، واستشهادًا بأقوال العلماء في مختلف الفنون، ولكنه أقلّ بكثير منه رسوخًا، وفهمًا، وقدرةً على الاستدلال، والاسْتنباط، والاجتهاد، والفتوى.

وما أكثر ما يترك العلم محبّوه ويهجروه، وكأنْ لم تكن بينهم وبينه مودّة وصلة وعلاقة وصحبة.

فشتان بينهما، ولَمَا بينهما كما بين السماء والأرض.



٤ «العناية بكتاب الله تعالى حفظًا وتدبّرًا، ثم العناية بالصحيحين»:

طالب العلم الصادق: يعتني بالقرآن أعظم عناية، ويجعله أهم مصدر لعلمه، وفهمه، وإيمانه.

ومن المحزن أن تجد من ملأ أوقاته بالقراءة والمطالعة وحضور الدروس وغيرها، ولا يكون لكتاب الله نصيب من وقته، وحظٌّ من قراءته.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ملأ الدنيا علمًا ونصحًا وجهادًا، وشغل وقته كلّه بتدبر القرآن والسُّنَّة، والنظر في العلوم الشرعية ليستفيد منها، والعلوم البدعية ليردّ على أصحابها ومُحبيها، لمَّا حبس فِي آخر عمره طلب منه أحد طلابه أَنْ يكْتب على جَمِيع الْقُرْآن تَفْسِيرًا مُرَتَّبًا على السُّور، فَكتب له تفسير وشرح بعض الْآيَات التي أشكل تَفْسِيرهَا على جمَاعَة من الْعلمَاء، بعد أنْ أطال في تدبرها وتأملها والنظر فيها، ثم قال: قد فتح الله عَليّ فِي هَذِه الْمرة من مَعَاني الْقُرْآن، وَمن أصُول الْعلم بأَشْيَاء كَانَ كثير من الْعلمَاء يتمنونها، وندمت على تَضْيِيع أكثر أوقاتي فِي غير مَعَاني الْقُرْآن!.اهـ(١).

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أشدها من حسرة، وأعظمها من غبنة، على مَن أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبَه أسرارُه ومعانيه.اهـ(٢).

---

(١) العقود الدرية ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) بدائع الفوائد ١/ ١٩٤.

والعلم كلّه في القرآن، فكيف يُطلب العلم من غيرِه؟

قال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حقّ طالب العلم: «يبتدئ أولًا بكتاب الله فيتقنه حفظًا، ويجتهد على إتقان تفسيره وسائر علومه؛ فإنه أصل العلوم وأمُّها وأهمّها». اهـ[(١)].

وهل برز من برز من العلماء الكبار إلا بالقرآن حفظًا وفهمًا وعملًا؟

ثم بعد العناية بكتاب الله تعالى: على طالب العلم العناية بـ«صحيح البخاري» و«مسلمٍ»، وفهم ما جاء فيهما عن النبي ﷺ.

«وإنه من العجب أنْ يُهْمل طالب العلم ـ الذي قد يكون أمضى سنوات على الطلب ـ فهم وتدبّر وتفسير أصح كتاب على وجه الأرض، الذي ما أُنزل إلا لذلك، وأنْ يُهْمل كذلك أصح كتابين بعد القرآن: البخاري ومسلم!

ولا تُغني كتب الأحكام عنهما؛ كبلوغ المرام والمحرر وغيرهما، فلن تجد فيها الفوائد والنفائس العقدية والسلوكية والأخلاقية والتربويّة واللغويّة، كما تجدها فيها»[(٢)].



(١) تذكرة السامع والمتكلم ٥١.

(٢) آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه: ١٠٦.

٥ «طريقة مجربة لضبط القرآن»:

من الطرق التي تعين على ضبط مراجعة القرآن: أنْ تحفظ كلّ يوم نصف جزء بلا خطأ ولا تردد، ثم تضيف له من الغدِ نصفًا آخر، إلى أن تصل إلى أربعة أجزاء، ثم تترك النصف الأول من الأسفل، وتأخذ نصفًا من الأعلى، ثم تستمرّ بهذه الطريقة حتى تختم القرآن.

وسوف تكرر كل وجه مراجعةً حفظًا ثمان مرات على الأقل، ولا شك أنّ هذا التكرار سيرسخ القرآن في صدرك.

وإذا وجدت صعوبة في ذلك: فقلل مقدار الحفظ إلى ربع جزء، أو إلى حزب فقط، وزد كلّ يوم حتى تصل إلى أربعة أجزاء، ثم إذا تجاوزت ذلك فأسقط مقداره مما حفظت أولًا.

فإن كنت ستحفظ كلَّ يوم نصف جزء، فستختم القرآن في شهرين بضبط تامّ، وإن كنت ستحفظ ربع جزء فستختم في أربعة أشهر.

فمثلًا: حفظت اليوم وجهين من سورة البقرة، وغدًا ستحفظ وجهين من الجديد، مع الوجهين السابقين، وبعد غد ستقرأ ستة أوجه: وجهين جديدين، وأربعة أوجه مراجعة، إلى أن تصل إلى أربعة أجزاء، ثم إذا بدأت بالوجهين الجديدين من الجزء الخامس، تركت أول وجهين من سورة البقرة، واستمر على هذه الطريقة بجدّ وحزم حتى تختم القرآن.

ثم بعد ختمك له ابدأ بمراجعة أربعة أو ثلاثة أجزاء كل يوم، وسوف ترى أمرًا عجبًا، وهو أنّك ستمر على بعض الأوجه والسور التي كنت تعاني منها قبل ذلك، وتشكو من صعوبتها، فإذا مررت عليها وجدتها أسهل ما يكون، وكأنك تقرؤها من المصحف، وستشعر حينها

بانشراح الصدر، والسعادة، والشعور بالعزة، حيث تغلّبت على هواك وعلى الشيطان، وستشعر بانتماء عظيم للقرآن، وحبّ شديد لكثرة ختمه.

فيا سعادة من جرب هذه الطريقة المباركة النافعة.

واقرأ ما حفظت من الجديد في قيام الليل، وإن علت همتك فجعلت حزبك جزءًا فهذا أكمل، وعلى هذا فاقرأ في قيام الليل النصف الجديد والذي قبله، وهكذا كلَّ يوم حتى تختم بإذن الله تعالى وحوله وقوته، وداوم على جزء أو نصف جزء على الأقل كلَّ ليلة.

فقراءته في قيام الليل تثبيتٌ له في صدرك، ولذّة وسعادة لا تُوصف.

قال الشَّيْخ محمد الأمين الشنقيطي ـ رَحْمَه اللهِ تَعَالَى ـ: لَا يُثَبِّتُ الْقُرْآنَ فِي الصَّدْرِ، وَلَا يُسَهِّلُ حِفْظَهُ وَيُيَسِّرُ فَهْمَهُ إِلَّا الْقِيَامُ بِهِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ. اهـ[(١)].

ومن أعظم الفوائد من ضبط القرآن:

١ ـ قراءته في قيام الليل عن ظهر قلب، ولقراءته عن ظهر قلب شعور عجيب، وأنس غامر.

٢ ـ قراءته في الطريق وفي كل مكان عن ظهر قلب، وهذا مما يخفف عليك همّ السفر والذهاب لقضاء أشغالك أو أشغال أهلك، حيث تبدأ بقراءةِ حزبك من حين خروجك من بيتك إلى أن ترجع، فلا ترى أنّ وقتك قد ضاع منه شيءٌ.

وقد كان السفر شاقًّا على كثير من طلاب العلم والمشايخ، وحينما

(١) أضواء البيان ٨/ ٣٥٩.

حفظوا القرآن زال عنهم همّ السفر؛ لأنهم يستغلون طريقهم وتنقلهم بالتغني بكلام الله تعالى ومراجعته.

ولا يتأتى ذلك بقراءته، ومن ذاق لذة القرآن بقراءته من المصحف ستزداد لذته بقراءته حفظًا أضعافًا مضاعفة.

٣ ـ استشهادك به في كلامك ودروسك وخطبك، وسوف يجد طالب العلم والداعي إلى الله في القرآن من الأدلة التي ستكون حاضرة في ذهنه في كل موضوع سيتكلم عنه، مما سيجعل لكلامه وقعًا عظيمًا وقوة وقبولًا في نفوس السامعين.

٤ ـ المتعة أثناء قراءته، ولن تجد في قراءة ثلاثة أجزاء يوميًّا أدنى كلفة، وهذا مجرب، ولا يجد مثل ذلك من لم يحفظه إلا ما شاء الله.

٥ ـ تبكيرك للصلوات؛ لأنك تستغل أوقات الصلوات للمراجعة والضبط، ومع مرور الأيام ستجد نفسك تحب التَّبْكِير مع الأذان أو قبله.

٦ ـ وأعظم من ذلك ما صح عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**يُقَالُ، لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا**»[١].

فأنصحك ـ أخي المسلم ـ بالعمل على هذه الطريقة الناجحة النافعة.

❁ ❁ ❁

(١) رواه الإمام أحمد (٦٧٩٩٩)، وأبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، وصححه.

٦ «مقاصد من قرأ كتابًا في التفسير»:

ينبغي لكل من قرأ كتابًا في التفسير أن يجعل لقراءته **عدة مقاصد**:

المقصد الأول: صلاح قلبه بتدبّر كتاب ربه، ويستعين على ذلك ـ بعد الله تعالى ـ بما فيه من الفوائد والمواعظ وآثار السلف الصالح.

وهذا هو الأصل والمقدم؛ لأنّ البحث عن دين الله للعمل به هو أهمّ مقاصد المسلم في القراءة والمطالعة.

المقصد الثاني: رسوخُ علمه؛ بفهم المسائل العلمية الواردةِ في التفسير، من مسائل الفقه والنحو واللغة والغريب وغيرها.

المقصد الثالث: استقامةُ عمله بالعمل بالقرآن، ويستعين على ذلك ـ بعد الله تعالى ـ بما صحّ فيه عن النبي ﷺ وسلف الأمة.

المقصد الرابع: تدوين الفوائد والدرر التي يجدها خلال قراءته وتأمله وفهمه وخواطره.

المقصد الخامس: نشر هذه الفوائد بقدر الاستطاعة؛ فنشرها عبر المدارسة، أو الكتابةِ، أو التعليم، هو زكاتُها وثباتها.



٧ «كتب مقترحة لطالب العلم»:

لا يطلق على أحد أنه طالب علم إلا إذا كان مطلعًا وملمًّا بأغلب فنون العلم الشرعي، ومن كان متخصصًا بفنّ أو فنين، فهو طالب علم متخصص.

ومن الخطأ التوسع في بداية طلب العلم في القراءة في كلّ فنّ، وكم أدَّى هذا التوسع بكثير من طلاب العلم **إلى**:

١ ـ التشتت والاضطراب.

٢ ـ والملل والسآمة.

٣ ـ وضعف التحصيل العلميّ.

وكان الأجدر بهم أن يقتصروا على أمهات الكتب في كلّ فنّ، ويضبطوها ويراجعوها ويُحكموها، ثم يتوسعون بعد ذلك شيئًا فشيئًا.

وهناك كتب لا يستغني طالب العلم عن قراءتها وفهمها ومراجعتها، وهذه الكتب ـ بمشيئة الله تعالى ـ تكون سببًا **في**:

١ ـ نضجه نبوغه.

٢ ـ وصلاح قلبه وخلوّه من الأمراض.

٣ ـ وصحة منهجه وسلوكه الجادة الصحيحة في الطلب.

٤ ـ ورسوخِه وقدرتِه على التأليف.

وهذه الكتب عامة لكل طالب علم، ومن أراد التخصص في أحد هذه الفنون فعليه بالتوسع.

ففي التوحيد: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، ثم

«كشف الشبهات»، ثم كتاب «التوحيد»، أربعتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، مع شروحها، هذا في توحيد العبادة.

وفي توحيد الأسماء والصفات: «العقيدة الواسطية»، ثم «الحموية» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، مع شرحيها، ثم الطحاوية مع شرحها.

وفي أصول التفسير: «المقدمة » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، مع شرحها.

وفي التفسير: «زبدة التفسير» للشيخ سليمان الأشقر رحمه الله تعالى، ثم «تهذيب تفسير ابن كثير» رحمه الله تعالى، «المصباح المنير»، ثم «تفسير السعدي» رحمه الله تعالى.

وفي المصطلح: «نخبة الفكر» لابن حجر، و«المنظومة البيقونية»، مع شرحيها.

وفي الحديث: «الأربعين» للنووي، ثم «عمدة الأحكام» للمقدسي، ثم «بلوغ المرام» لابن حجر، مع شروحها، ثم «صحيح مسلم» مع «شرح القرطبي»، ثم «صحيح البخاري»، مع «شرح ابن بطال» وهو مختصر مفيد، و«شرح ابن حجر» أشمل وأوسع.

وفي السلوك وأعمال القلوب: «مدارج السالكين»، لابن القيم رحمه الله تعالى (أو تهذيبه)، و«تهذيب إحياء علوم الدين» للشيخ صالح الشامي.

وفي السيرة النبوية: مختصرها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، ثم «الرحيق المختوم» لصفي الرحمٰن المباركفوري رحمه الله تعالى، ثم «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي آثار السلف الصالح: يقرأ الكتب المعتنية بذلك، وقد جُمعت وحققت وعلّق عليها، وبُيِّن الصحيح منها في كتاب: «حياة السلف بين القول والعمل»، في طبعته الرابعة.

وفي التاريخ: «البداية والنهاية» لابن كثير رحمه الله تعالى.

وفي الأدب: كتب الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله تعالى، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة رحمه الله تعالى.

وفي النحو: «الآجرومية»، مع شرحها، ثم «ملحة الإعراب» للحريري، أو «قطر الندى» لابن هشام.

مع تطبيق عمليٍّ للنحو؛ وذلك بقراءة كتب الإعراب، ومن أفضلها كتب إعراب القرآن، حيث يبدأ الطالب بسورة الفاتحة، ثم يعرب بنفسه، ثم ينظر إلى كتب الإعراب، للتأكد من صحة إعرابه.

وفي لسان العرب: العناية بأشعارها، وفهم معانيها وألفاظها، ويبدأ بديوان الشافعي، ثم ديوان المتنبي، ثم ديوان أحمد شوقي، ومن أراد التوسع فعليه بديوان الحماسة، ثم بالمعلقات.

وفي الفوائد المتنوعة والخواطر: «الفوائد» لابن القيِّم رحمه الله تعالى، و«صيد الخاطر» لابن الجوزي رحمه الله تعالى، و«رسائل ابن حزم» رحمه الله تعالى.

وفي الفقه: «آداب المشي إلى الصلاة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى، ثم «زاد المستقنع» للحجاوي رحمه الله تعالى، مع شرح الشيخ صالح الفوزان، ومن أراد التوسع فعليه بـ«الشرح الممتع» للشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى.

وفي أصول الفقه: «الورقات» للجويني رحمه الله تعالى، مع شرحها.

وفي الفرائض: «الرحبية»، مع شرحها.

وفي الفتاوى: «فتاوى ابن عثيمين» رحمه الله تعالى.

ثم ينتقل إلى كتب الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتب العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويقرؤها على الترتيب:

١ ـ كتب الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «الجامع المنتخب»، ثم «رسائل ابن رجب»، ثم «جامع العلوم والحكم».

٢ ـ كتب العلَّامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «الجواب الكافي»، ثم «مفتاح دار السعادة»، ثم «إغاثة اللهفان»، ثم «طريق الهجرتين».

ثم يبدأ بعدها بقراءة كتب شيخ الإسلام: «رفع الملام»، ثم «قاعدة في التوسل والوسيلة»، ثم «قاعدة في المحبة»، ثم «العبودية»، ثم «تهذيب اقتضاء الصرط المستقيم»، ثم «جامع المسائل» (٩ مجلدات).

ولكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مزايا جليلة، فهي تغذّي الحياة الإيمانية، وتنقل قارئها من الحياة الدنيا والتعلق بها، إلى الحياة الآخرة والتعلق بها، ويذوق طعم القراءة ومتعة الخلوة، ولذة الحياة، وتصنع العقول، وتزيل الشكوك، وتُثير الهمّة، وتقوي العزيمة.

فيا خسارة من زهد فيها، ولم يُكثر قراءتها، وجعلها زينةً لمكتبته فحسب، ولم يجعلها غذاءً لقلبه وعقله، ودواءً لأمراض الجهل والقلب.

ويبدأ طالب العلم بقراءة هذه الفنون حسب الترتيب الذي ذكرته، حيث يعتني في البداية في العقيدة، ثم بكلام الله، ثم بسُنَّة رسول الله ﷺ، ثم بتصحيح مقصده وسلوكه ونيته وأخلاقه، ثم يقف على سيرة نبيّنا وقدوتنا رسول الله ﷺ، ثم يقف على هدي وحياة سلفنا الصالح رحمهم الله، ثم يتوسع في معرفة تاريخ الأنبياء جميعًا مفصلة منقحة، مع

تاريخ الصحابة ﷺ، وتاريخ تابعيهم ومن جاء بعدهم، ففي التاريخ عبرة وعظة لأُلي الألباب، ثم ينتقل إلى تصحيح لسانه وكتابته، بقراءة كتب الأدب والشعر والنحو، ثم يأخذ قسطًا من الراحة والإجمام المفيد، فيقرأ في الفوائد والخواطر النافعة المتنوعة، ثم يعتني بالفقه وأصوله، وهو علم لا يجوز أن يهمله طالب العلم، ثم يقرأ في فتاوى العلماء الراسخين، ثم ينتقل إلى الكتب الجامعة بين هذه العلوم كلها، وهي كتب الأئمة: ابن رجب، ثم ابن القيم، ثم ابن تيمية، رحمهم الله تعالى.

هذه هي المنهجيّة الصحيحة في التدرج، فكم ستُخرّج لنا طلابًا متمكّنين مُؤصّلين، يستطيعون ـ بمشيئة الله تعالى ـ باستيعابهم لهذه الكتب أنْ يُلْقوا المحاضرات النافعة، ويُدرّسوا العلوم المختلفة، ويخدموا أُمتهم ومُجتمعهم.

ولو قارنّا بين صاحب القراءة الشموليّة وبين المتخصص بفنّ معيّن، لوجدنا الفرق كبيرًا.

فصاحب القراءة الشموليّة يستطيع تأليف أيّ كتابٍ، وبحث أي مسألة، بخلاف غيرِه.

صاحب القراءة الشموليّة يستطيع التصدّر للإفتاء والإجابة عن أي سؤالٍ ـ إلا ما شاء الله ـ بخلاف غيرِه.

صاحب القراءة الشموليّة يُنتفع بكتبه وبحوثه؛ لأنه يهتمّ بما ينفع عموم الناس، بخلاف المتخصص بفنّ معيّن، فهو لا يُؤلف ولا يبحث ـ غالبًا ـ إلا في مجال تخصّصه، ويتناول دقائق المسائل التي لا ينتفع بها إلا بعض المتخصصين في علمِه.

٨ «أنواع قُرّاء العلوم النافعة»:

قُرّاء العلوم النافعة أربعة أنواع:

١ ـ يقرأ ليستمتع.

٢ ـ يقرأ ليستفيد.

٣ ـ يقرأ ليُفيد.

٤ ـ يقرأ ليستفيد ويُفيد.

النوع الأول: لا يخرج بنتيجة كبيرةٍ، سوى قضاء الوقت بما لا يضرّ؛ بل إنَّ عِلْمه سيكون حجةً عليه إن لم يعمل به.

النوع الثاني: قراءته تعينه على العلم والرسوخ العلمي النظري، **ولكن يُلحَظ على أصحابِ هذا النوع التقصير الكبير في نفعِ الناس، وتزكيةِ العلم، ونشرِه بينهم.**

النوع الثالث: قراءته للنفع، وذلك لحبِّه لنشر علمِه، وإفادةِ الآخرين، ولكن ـ للأسف ـ لا يعود على أصحابِ هذا النوع أثرُ علمهم على أنفسهم في العبادةِ خصوصًا، ويُؤخذ عليه تتبع غرائب العلم، وشواذّ الأقوال، وفقرٌ لمدح الناس وإعجابهم.

النوع الرابع: هو العالم الراسخ، والعامل الصالح، وهو الذي ينتفع وينفع بما يقرأ، وهو في جهاد وعبادة ما دام بين كتبه يقلّبها لأجل أن يتعلّم ليعمل ويُعلّم، وهو الذي يثبت عند الفتن والأزمات، وتنتفع الأمة بعلمه وأخلاقه، وهو من الذين يُقتدى بهم.

وهذا وأمثاله هم الصادقون في طلبهم للعلم، المخلصون لله في

العمل به ونشره، ويجدون في العلم من اللذة والأنس ما لا يجده أهل الدنيا بدنياهم مهما أوتوا وأُعطوا.

فهؤلاء هم العلماءُ العاملون الْمُباركون الربّانيُّون، نسأل الله تعالى أنْ يُلحقنا بركابهم، وأن يُبوِّئنا مثل منازلهم.

قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: إنَّ السلف مجمعون على أنّ العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًّا حتى يَعرف الحق ويعمل به ويعلِّمه، فمن عَلِم وعَمِل وعَلَّم فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات.اهـ[(١)].

ومن بديعِ ما قاله أحدُ السلف: **العلماء ثلاثة**:

١ ـ رجل عاش بعلمه وعاش به الناس.

٢ ـ ورجل عاش بعلمه ولم يعش به الناس.

٣ ـ ورجل عاش بعلمه الناس وهلك هو.



(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٩.

٩ «كيف يعرف القارئ أنه جادّ في القراءة؟»:

قراءة المتعة: هي القراءة لأجل قضاء الوقت، والاستمتاع بما يقرأ، ولا ينوي صاحبُها بقراءته العمل وتغيير حاله إلى الأفضل.

وإذا أردت أن تعرف أنك جادّ في القراءة وأنها تقودك نحو الرسوخ والفائدة الكبيرة فخذ هذا المعيار:

إذا كانت قراءتك مجرّد متعة ولذة: فقراءتك قراءة ثقافة، وحفظِ وقتٍ فحسب.

وإذا كان مع لذتك تمرُّ بك أوقات كثيرة لا تجد فيها المتعة، وإنما تجد الصعوبة، فتصبر لأجل ما يعقبها من الفوائد الكبيرة: فقراءتك قراءةٌ جادّة ـ غالبًا ـ وتقودك نحو الرسوخ.

فاجعل منهجك:

(سأقرأ لأستفيد وأُفيد، ولن أقرأ لأستمتع وأقضي وقتي فحسب).

ولن تتمكنّ من ذلك ـ بعد توفيق الله ـ إلا بالجد والحزم والهمّة العالية.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أعمل فكره الصافي؛ دلّه على طلب أشرف المقامات، ونهاه عن الرضا بالنقص في كل حال، وقد قال أبو الطيب المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا ... كنقص القادرين على التمام

فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه، فلو كان يتصور للآدمي صعود السماوات، لرأيتُ من أقبح النقائص رضاه بالأرض.

والسيرة الجميلة عند الحكماء: خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل.

واعلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تُنْتَهب، ولا تخلد إلى كسل، فما فات مَن فات إلا بالكسل، ولا نال مَن نال إلا بالجدّ والعزم.اهـ[(١)].

وقال أحد المشايخ وفَّقه الله: تأملتُ في حال جماعة كبيرة من طلاب العلم من مختلف الطبقات، فتبيّن لي أنّ أكثر الآفات ضررًا عليهم: الكسل وعدم الاجتهاد في الطلب، فهذه الآفة لا ينفع معها: ذكاء ولا ذاكرة ولا نباهة ولا أيّ شيء.اهـ.

فلقد أكرمك الله تعالى ـ يا طالب العلم ـ بأن اصطفاك، وجعل العلم الشرعي النافع شغلك الشاغل، فلا تضيّع هذه الكرامة بالتقصير والكسل.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: الْعلم مواهب من الله، لَيْسَ كلُّ أحدٍ يَنَالهُ.اهـ[(٢)].

إنَّ الْفضائلَ لا تُنال براحةٍ كلا ولا يحظى بها الكسلانُ



(١) صيد الخاطر ص١٧٣ ـ ١٧٥.
(٢) طبقات الحنابلة ١/ ٣٢٣.

١٠ «قراءة الكتاب لأكثر من مرة: أهم من قراءة كتاب جديد»:

يكاد يتفق أهل العلم والخبرة على أنَّ تكرار قراءة كتاب نافعٍ، أو حفظَ متنٍ مفيدٍ: خير وأنفع وأثبت من ابتداء كتاب جديد ولو كان أفضل من الأول.

فكثرة القراءات وتنوعها: تُعطي ثقافة وكثرة معلومات، ولا تعطي التأصيل والرسوخ أبدًا، وإنما الرسوخ والتأصيل في تكرار قراءة الكتاب الواحد، والتلخيص والتأمل في الكتاب الذي يُقرأ.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي لطالب العلم أن يكون جل همته مصروفًا إلى الحفظ والإعادة؛ فلو صح صرف الزمان إلى ذلك كان الأولى.

وإن النفس لتهرب إلى النسخ والمطالعة والتصنيف عن الإعادة والتكرار؛ لأن ذلك أشهى وأخفّ عليها.

ومع العدل والإنصاف يتأتى كلُّ مراد، ومن انحرف عن الجادة طالت طريقه.اهـ[1].

وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن انحرف عن الجادة الصحيحة في طلب العلم طال طريقه، وعسر عليه الفهم والعلم.

وكثير ممن ذاق طعم القراءة أو التصنيف، انشغل بذلك عن الحفظ، والتكرار، وثني الركب للتعليم؛ لأنه صعب عليه فراق تلك اللذة التي ذاقها، وهذا سيؤثر على تحصيله العلمي والعملي.

---

(١) صيد الخاطر: ٢١٩.

وقراءة الكتاب لأول مرة: يجد القارئ فيه حلاوة ولذة؛ وذلك لكثرة المعلومات الجديدة عليه ـ غالبًا ـ فإذا أنهاه ظن أنه قد هضمه وفهمه، ولا يحتاج إلى الرجوع إليه!

وبالتجربة: فإن من يقرأ كتابًا قيّمًا، يحتوي كله أو أكثره على معلومات جديدة: سينساها بعد زمن قليل، ولن تتبقَّى إلا بعض المعلومات اليسيرة جدًّا.

وتكون نسبة رسوخِ المعلوماتِ منه ما يقارب (عشرة في المائة)، هذا إذا لم يلخصه أو يرجع إليه.

أما إذا قرأه مرة أخرى، أو قرأ تلخيصه إن كان لخصه: فسوف ترسخ المعلومات رسوخًا كبيرًا، بنسبة (سبعين في المائة) تقريبًا، وهذه القراءةُ من أعظم أسباب صقل المواهب، وفتح مغاليق العقل، وتفتق الذهن.

ولذلك، تجد العلماء الكبار يعتنون بالمتون الصغيرة والمتوسّطة قراءةً، وحفظًا، وتدريسًا، وتكرارًا، فكان من نتائج ذلك: رسوخُهم في العلم، وقدرتُهم على شرحها بعد ذلك شرحًا مسدّدًا وافيًا، ورُزقوا مَلَكةً في الاستنباط، والفتوى.

وخذ مثالًا على ذلك: كانت للعلامة محمد بن صالح بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ مكتبةٌ صغيرة، تحتوي على أهم المتون العلمية، والكتب الأصلية، فضبطها كلها أو جلها، وكرر قراءة كثير منها، فأنتج كتبًا قد تكون أكثر من الكتب التي في مكتبته!

وتجد كثيرًا من طلاب العلم يبالغون في القراءة وجمع الكتب، ولم يستطيعوا شرح متن علميّ شرحًا وافيًا، أو تأليف كتاب تنتفع به الأمة.

فيجب العناية بتكرار قراءة الكتب النافعة.

والغالب أن الإنسان إذا ابتدأ قراءة كتاب جديد: سيُعجبُه ما فيه من العلوم والمعارف، وسيظن أنه قد حصل على كنز كبير، والواقع أنه كنز ـ إذا كان الكتاب قيّمًا نافعًا ـ ولكنه سريعًا ما يضيع ويذهب، ولا يكاد يبقى منه شيء بعد برهة من الزمن.

بخلاف إعادة قراءة كتاب سبق أن قرأته، فإنّ محتواه موجود في عقلك الباطن، وما عليك إلا استخراجه بتكرار القراءة، وحينما تظهر وتخرج من العقل الباطن لا تكاد تُنسى بإذن الله تعالى.

والفقه على وجه الخصوص لا يُضبط إلا بتكرار قراءة كل أبوابه وكثرة بحث مسائله المشكلة، ولا أقل من قراءته في العام مرة واحدة، قراءةً شاملة تأتي على جميع أو جلّ مسائلِه وأبوابه، فهو سريع التفلّت، كثير التشعب.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: مَنْ لَمْ يَتَعَاهَدْ علمه ذهب عنه؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتَ الْقُرْآنُ لَا غَيْرَ، وَإِذَا كَانَ الْقُرْآنُ الْمُيَسَّرُ لِلذِّكْرِ يَذْهَبُ إِنْ لَمْ يُتَعَاهَدْ، فَمَا ظَنُّكَ بغيره من العلوم المعهودة، وخير العلوم مَا ضُبِطَ أَصْلُهُ، وَاسْتُذْكِرَ فَرْعُهُ، وَقَادَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَدَلَّ عَلَى مَا يَرْضَاهُ.اهـ(١).



(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ١٤/ ١٣٤.

١١ «أقسام الناس بالنسبة للعقل والعلم»:

الناس أقسام أربعة:

١ ـ من عقلُه أوفر من علمه.

٢ ـ من علمه أكثر من عقلِه.

٣ ـ جاهل أحمق.

٤ ـ عالم عاقل.

فالأول: يحجزُه عقلُه عن كثيرٍ من سفاسف الأمور، ولا يكاد يقع في الأمور الدنيئة، والمواقف الحرجة.

ولكن مع ذلك، قد يُصاب بعض العقلاء بالغرور والعجب والكبر، فيَزدري من تحت يده، أو يظلمهم، فيضرّر بذلك تضرُّرًا كبيرًا.

وربما تمرد على شرع الله تعالى، وحكّم عقله حيث أُعجب به، ومبدأ غالب البدع والطوائف المنحرفة من رجل عنده عقل وذكاء، لكنه قليل البضاعة في العلم، فحكّم عقله، وأمدّه الشيطان وأزّه، حيث لا رسوخ في العلم عنده، فضلّ وأضلّ.

والثاني: كثير التقلّبات، ويأتي بالغرائب والعجائب، ولا يكاد يستقر على حال، وربما كان علمه وبالًا عليه، حيث سخره لهواه أو هوى غيره.

قال البَلْخِيُّ عن أحدِ الملحدين: كَانَ عِلْمُهُ فَوْقَ عَقْلِهِ. اهـ[١].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٧/ ٦٢.

«وكان السهروردي أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية، جامعًا للفنون الفلسفية، بارعًا في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله»(١).

وصدق القائل: «إذا كان علم الرجل أكثر من عقله كان حريًّا أن يضرّه علمه»(٢).

وقيل لابن المقفع ـ وقد اجتمع مع الخليل بن أحمد ـ: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلًا عقله أكثر من علمه.

وقيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ قال: رأيت رجلًا علمه أكثر من عقله.

قال المغيرة بن محمد: صَدَقَا، أدى عقل الخليل إلى أن مات أزهد الناس، وجهل ابن المقفع إلى أن قتل.

وذلك أنه كتب كتابًا لعبد الله بن علي فقال فيه ما كان مستغنيًا أن يقوله، فأمر بقتلِه(٣).

ومن أظهر ما يُستدلّ به على هذا الصنف من الناس: أنَّ قلب الواحد منهم في طرف لسانه، ولا يرجع إلى عقلِه؛ بل ما جرى على لسانه تكلم به.

بخلاف من عقلُه أوفر من علمه: فلسانُه وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول رجع إلى عقلِه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك.

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان ٦/ ٢٦٩.
(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر: ١١٧.
(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ١/ ٢٧٦، الأوائل، لأبي هلال العسكري ص٣٧٧.

والثالث: جمع الشرّ كلّه.

والرابع: جمع الخير كلّه إذا كان معه تقوى وإيمان.

واعلم أنّ العقل جزءان:

أحدهما: ما تفرد الله سبحانه بصنعته.

والآخر: ما يستفيده المرء بنفسِه، بمخالطتِه وقراءته وتجاربه.

فصاحب العقلاء، واقرأ لهم، وروّض نفسك على التخلّق بأخلاقهم، والتأدّب بآدابِهم، وجاهد نفسك على الاقتداء بسيرهم: تكن من أعقل الناس وأحكمهم وأحنكهم.

والتربيةُ تنصبُّ في الأساس على العقل، فهو مِلِكُ الجوارح، والعقلُ قابلٌ للزيادةِ والنقص مدى حياة الإنسان.

وحياةُ الإنسان مدرسةٌ يستفيد منها مَنْ نوّر الله تعالى بصيرته.

فنضوج العقل لا يتأتّى إلا لمن استعان بربّه، واستفاد من تجاربِه وتجارب غيرِه.

فعقلُ الرشيد: عزيز المنال، سابغ الظِّلال، فاللَّهُمَّ ألهمنا رشدنا، وقِنَا شرور أنفسنا. آمين.



١٢ «لذة العلم»:

طالب العلم يجد شوقًا عظيمًا للكتاب، بحيث يتفرغ تفرغًا كاملًا للحبيب الذي لا تُمل مجالسته، والخليل الذي لا تحلو الحياة بالبعد عنه.

كيف لا يفرح وهو ينتظر الكنوز الإيمانية والعلمية والعملية التي سيجنيها منه، وينتظر انشراح الصدر والسعادة أثناء الاستمتاع في القراءة، التي هي ألذّ في قلبه وأشهى من كنوز الأموال والجواهر.

كيف لا يفرح وهو ينتظر الفتوحات الربانية، التي يطمع من الله الكريم الوهاب الرحيم، الودود الجواد الحليم، أنْ يُفيضها عليه كما عوَّده في قراءاته السابقة.

كيف لا يفرح بقراءة كتب أهل العلم وهي التي زادته معرفةً بربّه ﷻ، فلولا توفيق الله تعالى له بتيسير هذه العلوم لَمَا زادت معرفته بربه، ولا أنس بالقرب منه، ولا انشرح صدره بذكره، والإقبالِ عليه، ولا صلح حالُه بحبه ورجائه.

ولكن هذه اللذة لن تأتي إلا بعد سنوات من الطلب والصبر والمصابرة، وما أجمل ما قاله العلَّامة ابن القيِّم رحمه الله: إنما رغب أكثر الْخلق عَن اكْتِسَاب هَذِه السَّعَادَة ـ أي: سعادة العلم ـ وتحصيلها: وُعُورةُ طريقها، ومرارة مباديها، وتعب تَحْصِيلهَا، وأنها لا تنال إلا على جسر من التَّعَب، فإنها لا تحصل إلا بالجد الْمَحْض.

وسَعَادَة الْعلم لَا يورثك إياها إلا بذلُ الوسع وَصدق الطّلب وَصِحَّة النِّيَّة، وَقد أحسن الْقَائِل فِي ذَلِك:

فَقل لمرجِّي معالي الأمور ... بِغَيْر اجْتِهَاد رَجَوْت المحالا

وَقَالَ الآخر:

لَوْلَا الْمَشَقَّة سَاد النَّاس كلهم ... الْجُود يفقر والإقدام قتال

وإن كَانَت ـ أي: السَّعَادَة ـ فِي ابتدائها لَا تنفك عَن ضربٍ من الْمَشَقَّة والكره والتأذي، فإنها مَتى أُكرهت النَّفس عَلَيْهَا وسيقت طَائِعَةً وكارهةً إليها، وَصَبَرت على لأوائها وشدتها أفضت مِنْهَا إلى رياض مُؤنِقة، ومقاعد صدق، ومقام كريم، يجد كلَّ لَذَّة دونهَا كلعب الصَّبِي بالعصفور بِالنِّسْبَةِ إلى لذات الْمُلُوك، فَحِينَئِذٍ حَال صَاحبهَا كَمَا قيل:

وَكنت أرى أنْ قد تناهى بِيَ الْهوى ... إلى غَايَةٍ مَا بعْدهَا ليَ مَذْهَب

فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لَا يُعبر إليها إلا على جسر الْمَشَقَّة، ولَا تُقطع مسافتها إلا فِي سفينة الْجد وَالِاجْتِهَاد، قَالَ مُسلم فِي «صَحِيحه»[1]: قَالَ يحيى بن أبي كثير: لا ينال الْعلم براحة الْجِسْم، وَقد قيل: من طلب الرَّاحَة ترك الرَّاحَة.

فيا وصل الحبيب أما إليه ... بِغَيْر مشقةٍ أبدًا طَرِيق

وَلَوْلَا جهل الأكثرين بحلاوة هَذِه اللَّذَّة، وَعظم قدرهَا: لتجالدوا عَلَيْهَا بِالسُّيُوفِ، وَلَكِن حفت بحجاب من المكاره، وحجبوا عَنْهَا بحجاب من الْجَهْل، ليختص الله بها من يَشَاء من عباده، وَالله ذُو الْفضل الْعَظِيم. اهـ[2].

نسأل الله مِن فضله.

(١) رقم (٦١٢).

(٢) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

١٣ «قراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ بمنهجية صحيحة من أعظم المتع»:

يظن كثير من طلاب العلم أنّ قراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ صعبةٌ ومتعبةٌ، وتخلو من المتعة، وهذا صحيح لمن لم يتقن فنّ القراءة بعدُ.

وإذا أتقنت فنّ القراءة، وصبرت في البدايات: ستعيش ـ إن شاء الله ـ حياةً لا تشبه حياة أهل الدنيا، ولا تجد لها شبيهًا ولا نظيرًا.

وستجد ارتباطًا بمكتبتك ارتباطًا قويًا، فلا تكاد تخرج ساعة أو ساعتين إلا وجدت الحنين والشوق إلى الرجوع إليها للقراءة.

وإذا قاربت الانتهاء من الكتاب الطويل ستشعر حينها بفرح عظيم لا يُوصف، حيث منّ الله تعالى عليك بالاستفادة من مخزون علمي عظيم، لا يكاد يظفر به إلا القليل من الناس.

ولن يسلم لك فرحك عند قربك من الانتهاء منه، حيث سيخالطه شيء من الحزن والخوف، وهو شيءٌ تجده ولا تتكلفه؛ لأنك قد عشت أيام قراءته وتدوين الفوائد منه سعادة ولذة عظيمة، واكتسبتَ خلالها علومًا كثيرة، وتأصيلًا في كثير من النواحي، وأعظم ما اكتسبته منه ـ إذا صحَّحت نيتك في القراءة ـ: الإيمان والتعلق بالله وتوحيده والإقبال عليه، وطلب رضاه ولو سخط الناس، خاصة إذا كنت تقرأ لأئمة المسلمين المحققين؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية أو ابن القيم أو ابن رجب وأمثالهم رحمهم الله تعالى.

فربما تشعر بحزنٍ يُخالجك بسبب أنك على وشك وداع هذه الأيام الماتعة الجميلة، مع ما فيها من المرارة والصعوبة ومكابدة فهم الكثير من الأبواب وتحقيقها.

١٤ «لفتةٌ حول قراءة المطولات من كتب أهل العلم»:

كثيرٌ من طلاب العلم ـ أو أكثرهم ـ لم يقرؤوا الكتب المطوَّلةَ من كتب أهل العلم؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وخاصة «مجموع الفتاوى»، وذلك لصعوبتها وطولها.

ولو أنهم ـ بعد زمن من التحصيل وطلب العلم ـ استعانوا بالله تعالى، وقرؤها، وصبروا عليها: لخرجوا بفوائد عظيمة جدًّا، **ومن بينها**:

الفائدةُ الأولى: أنّ هذه المجلدات الضخمة على كثرتها وصعوبتها، والتي يستصعبها بعض العلماء، فضلًا عن طلاب العلم، سييسّرها الله تعالى إذا شرعت بقراءتها، ولن تجد الصعوبة التي كنت تتخيلها فيها؛ بل ستجدها سهلةً يسيرة في الغالب.

الفائدةُ الثانية: أنك ستتقاصر طول أيّ كتاب بعدها، وقد كنت تنظر ـ قبل قراءتها ـ إلى بعض الكتب المطولة على أنه من المستحيل قراءتها؛ لطولها وصعوبتها.

الفائدةُ الثالثة: التمكين في العلم، قال ابن الجهم: ما قرأتُ قط كتابًا كبيرًا فأخلاني من فائدة، وما أحصي كم قرأتُ من صغار الكتب فخرجتُ منها كما دخلتُ.اهـ[(١)].

فإن الكتب المختصرة، والمتون الصغيرة ولو مع شرحها لا تُخرج طالب علم متمكن مُؤصل، قادر على الإفتاء في النوازل، واستنباط الأحكام من الأدلة الشرعية.

(١) الحيوان، للجاحظ ١/ ٥٤.

الفائدةُ الرابعة: أنَّ نفسك ستتصاغر عندك؛ وذلك حينما تقف على علم وهمةِ هؤلاء العلماء العظماء.

وستتعلم من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ على وجه الخصوص روح التواضع وهضم النفس، وعدم الاغترار بالألقاب والأسماء، فقدر الإنسان الحقيقيّ ليس بمنصبه، ولا بما يُقال عنه؛ لأنه أعرف من الناس بنفسه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ: الْعَارِفُ مَنْ صَغُرَتْ حَسَنَاتُهُ فِي عَيْنِهِ، وَعَظُمَتْ ذُنُوبُهُ عِنْدَهُ، وَكُلَّمَا صَغُرَتِ الْحَسَنَاتُ فِي عَيْنِكَ كَبُرَتْ عِنْدَ اللهِ، وَكُلَّمَا كَبُرَتْ وَعَظُمَتْ فِي قَلْبِكَ قَلَّتْ وَصَغُرَتْ عِنْدَ اللهِ، وَسَيِّئَاتُكَ بِالْعَكْسِ، وَمَنْ عَرَفَ اللهِ وَحَقَّهُ وَمَا يَنْبَغِي لِعَظَمَتِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ تَلَاشَتْ حَسَنَاتُهُ عِنْدَهُ، وَصَغُرَتْ جِدًّا فِي عَيْنِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِمَّا يَنْجُو بِهَا مِنْ عَذَابِهِ، وَأَنَّ الَّذِي يَلِيقُ بِعِزَّتِهِ، وَيَصْلُحُ لَهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ أَمْرٌ آخَرُ، وَكُلَّمَا اسْتَكْثَرَ مِنْهَا اسْتَقَلَّهَا وَاسْتَصْغَرَهَا؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا اسْتَكْثَرَ مِنْهَا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَالْقُرْبِ مِنْهُ، فَشَاهَدَ قَلْبُهُ مِنْ عَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَجَلَالِهِ مَا يَسْتَصْغِرُ مَعَهُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ، وَلَوْ كَانَتْ أَعْمَالَ الثَّقَلَيْنِ، وَإِذَا كَثُرَتْ فِي عَيْنِهِ وَعَظُمَتْ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مَحْجُوبٌ عَنِ اللهِ، غَيْرُ عَارِفٍ بِهِ وَبِمَا يَنْبَغِي لَهُ، وَبِحَسَبِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَعْرِفَتِهِ بِنَفْسِهِ يَسْتَكْثِرُ ذُنُوبَهُ وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِهِ؛ لِمُشَاهَدَتِهِ الْحَقَّ وَمُسْتَحَقَّهُ، وَتَقْصِيرِهِ فِي الْقِيَامِ بِهِ، وَإِيقَاعِهِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ الْمُوَافِقِ لِمَا يُحِبُّهُ الرَّبُّ وَيَرْضَاهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ. اهـ[(١)].

فهذه الفوائد النفيسة وغيرها تشحذ همة طالب العلم الموفق لقراءة

(١) مدارج السالكين ١/ ٢٧٧.

الكتبِ الْمُطوّلةِ، ولكن بعد طول قراءة في المختصرات، وحضور دروس العلم، واستشارة أهل الخبرة الناصحين.

واعلم أنّ قراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ كصعود الجبل الشاهق، متى ما نظرت إلى قمّته أُحبطت وفترت، ومتى ما اهتممت بموضع قدميك صعدت بنشاط وأمل وسعادة.

فالذي يصعد الجبل لا ينظر إلى القمة حتى لا يُصاب بالإحباط، ويشعر بصعوبة الصعود، وينتابه الخوف من السقوط؛ بل ينبغي له أنْ ينظر إلى موطئ قدمه، ويُحدث نفسه بقرب الوصول، ويعيش لحظات سيره، ولا يحمل همّ وصوله، فما هي إلا خطوات قليلة حتى يصل للقمة.

وهكذا ينبغي لِمَن يقرأ المطولات أنْ يستمتع بأُولى الصفحات، ويُنهي الصفحة تلو الصفحة ويعيش معها، ويستمتع بالمعلومات التي يمر عليها، ولا ينظر إلى المجلد الذي يليه حتى يُنهي المجلد الأول، وهكذا يعيش طوال أيام قراءته بسعادة وراحة ولذة، وما هي إلا أيام قليلة ـ مُقارنة بعمره إن مدّ الله به ـ حتى يُنهي عشرات المجلدات، ويكتسبَ العلم والفهم والتمكين بحول الله تعالى.

فعش لحظات القراءة، ولا تحمل همَّ النهاية.



١٥ «علاقة طالب العلم الصادق مع نفْسِه ومع غيرِه»:

لا بد لطالب العلم الصادق أن تكون له علاقةٌ وصلةٌ قوية مع نفْسِه ومع غيرِه:

فأول علاقة وأوجبها: علاقتُه مع ربه ﷻ:

وإذا استقامت علاقته مع ربه: استقامت علاقته مع نفسه ومع غيره، فمن أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس.

فطالب العلم الصادق: يكون همّه منذ أن يصبح إلى أن يمسي: رضا ربه، والعمل بما يحب، من صلاة وصيام وقراءةٍ للقرآن وتدبّره، وطلبٍ للعلم ونشره بمدارستِه مع طلاب العلم، وتذكير الناس ووعظهم وتعليمهم.

وينذر وقته جلّ وقتِه للعبادة وطلب العلم ونشره بكل ما يستطيع؛ كمواقع التواصل، والتأليف، والخطب، والكلمات، والدروس، وتربية أهله وأولاده، والنصيحة لكلّ مسلم، ولا بأس أن يعطي نفسه فسحة في الأسبوع مرة، للخروج مع الأصدقاء أو الأهل أو الأقارب في نزهة ونحوها.

وما أجمل ما قاله الذهبي رحمه الله: رحم الله امرأً أقبل على شأنه، وقَصَر من لسانه، وأقبل على تلاوة قرآنه، وبكى على زمانه، وأدمن النظر في الصحيحين، وعَبَد الله قبل أنْ يبغته الأجل.اهـ[(١)].

واعلم أنّ عقل اللبيب مشغولٌ بأنفس شيء، وعقل الجاهل مشغولٌ بما ليس بشيء.

---

(١) تذكرة الحفاظ، للذهبي ٢/ ٨٦.

ولا أنفس من الانشغال بأعظم عظيم ، وبعمارة الدار الآخرة الباقية الخالدة، والمنشغل بالدنيا وحطامها وجمعها، فإنه في الحقيقة مشغولٌ بما ليس بشيء، وسيحاسب على كلّ شيء!

ثانيًا: علاقته مع نفسه:

طالب العلم الصادق إذا علم عِظَم حقّ ربه عليه، وعلم ما يستحقه: شعر دائمًا أنه مقصر تقصيرًا عظيمًا، وازدرى نفسه، ولن يرى أنه عمل العمل الذي ينبغي، فلذلك يدعو ربه كثيرًا: اللَّهُمَّ أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادك، اللَّهُمَّ عاملني بعفوك وإحسانك وكرمك وجودك.

ويفرح أيما فرح بمن يهدي إليه عيوبه، ويبصره بأخطائه، ويبادر أصدقاءه وطلابه بذلك، ويرى لهم الفضل في تعديل الكثير من أخلاقه وطباعه.

ولا يجد ما يُكافئهم عليه إلا الدعاء لهم، مع حرصه الشديد على المبادرة إلى الأخذ بنصائحهم وملحوظاتهم، مع شكرهم على ذلك إذا سنحت الفرصة.

وقد جَعَل من أهمّ أهدافه في الحياة: أنْ يستفيد من كلّ أحدٍ ومن كلّ موقف، ويرجع بفوائد من نزهاته ورحلاته، ولو كانت في الأصل لنفع الناس في إقامة دروس أو محاضرات ونحوها، ولا يكاد يرجع دون أن يستفيد دروسًا ينتفع بها في دينه أو دنياه.

ثالثًا: علاقته مع الناس:

إذا علم طالب العلم قدر نفسِه، وأنها مقصرةٌ ومفرّطة، وعرضة للزلل والخطأ: تعامل أحسن التعامل مع الناس.

ويقوم بأعظم حقّ عليه بعد حق الله ورسوله عليه، وهو حقّ الوالدين، فيزورهما ويقضي حوائجهما بقدر استطاعته.

ثم يقوم بحق أهله وأولاده، فيداعبهم ويمازحهم، ويجلس معهم بعض الوقت.

ثم يقوم بحقوق جيرانه، فيزورهم بين الفينة والأخرى في الوقت المناسب، وسيجد لذلك الأثر الكبير عليه وعليهم.

ثم يقوم بحقوق أصدقائه، «فالصداقةُ لها تبعاتٌ ولوازم كثيرة، وواجباتٌ صعبة، لا يقوم بحقِّها إلا الأوفياء، وطالب العلم أولى الناس بخلق الوفاء، فهو يَصْدق صاحبه في النصيحةِ والمحبَّة، ويقف معه عند الضِّيقِ والحاجة، وحالَ اليُسر والإعسار، وعند الفاقةِ والإقتار، وتشتدّ صداقته ووفاؤه عند الأزمات، وتقوى عند الْمُلمَّات، وتظهر جليَّةً عند الحاجات»[(١)].

ويحرص على إدخال السرور على أصحابه بقدر الاستطاعة، ويعطيهم من وقته ما يعود عليه وعليهم بالنفع.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلُّ سبب يعود عليك بصلاح قلبك، ووقتك، وحالك مع الله، فلا تُؤثر به أحدًا، فإنْ آثرت به فإنما تُؤثر الشيطان على الله عَزَّ وَجَلَّ وأنت لا تعلم. اهـ[(٢)].

ولا يتردد في تقديم النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يبالي بردود أفعال الناس إذا أدى النصيحة بالرفق والسر، ولا مكان

(١) حُقُوقُ الصَّدِيْقِ وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَه، للمؤلف: ٦، ١١.

(٢) مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ ٢/ ٢٨٤.

عنده للمجاملة على حساب دينه وأداء الأمانة التي كلفه بها ربه.

وسيجد نفرةً مِن بعض مَن ينصحهم ويخبرهم بأخطائهم ليصححوها، ولكنه لا يلتفت إلى شيء ما دامت همُّه وغايتُه رضا الله، ولسان حاله:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضا والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

وإذا استفاد من أحد أخبره بأنه استفاد منه، ويحرص إذا أفاد أحدًا ألا يُشعره هو ولا غيره بأنه استفاد منه.

وقد ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ الخليل بن أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ كان إذا أفاد إنسانًا شيئًا، لم يُرِهِ بأنه أفاده، وإن استفاد من أحد شيئًا، أراه بأنه استفاد منه.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: صار طوائف في زماننا بالعكس[1].

ويفرح إذا سمع من يثني على أحد من الناس ـ صغيرًا كان أم كبيرًا ـ على خيرٍ قدّمه، أو على علمِه أو حسن خطبه أو كرم أخلاقه، ويبادر فيتصل عليه ويخبره بثناء الناس عليه، ويحبّ أن يرى أصدقاءه وطلابه وغيرهم أحسن وأفضل وأعلم منه؛ لتعمّ الفائدة، وينتشر دينُ الله.

ويُحبّ الاستفادة من كلّ أحد، والانتفاع بكلّ شيء يُمكنه الانتفاع به في دينه خاصة، وقد أخذ على نفسه وعدًا ألا يسمع ولا يقرأ شيئًا ينفعه في دينه إلا بادر بالعمل به.

وسيكون هذا الأمر شاقًّا عليه في بداية الأمر، ولكن بتوفيق الله له،

---

(١) تهذيب سير أعلام النبلاء ٢/ ٧١٣.

ثم بصبره وعدم تراجعه عما عزم عليه سيسهل عليه الأمر بعد ذلك.

وسيجد لهذا ثمارًا كثيرة منها:

الثمرة الأولى: حبّ وتقبل النقد النافع، والفرح بذلك.

الثمرة الثانية: سهولة تغيير طباعه، وعاداته، وعباداته، وأخلاقه، وأداء وأسلوب كلامه وحديثه، إلى الأفضل والأحسن.

والله تعالى نثر المواهب بين الخَلْق ليظلُّوا ملتحمين ومترابطين؛ لحاجة بعضهم إلى بعض، وليس هناك أحدٌ كاملٌ في علمه وأخلاقه ومواهبه، فهو بحاجة إلى غيره، فلا يتردد في الاستفادة من الآخرين، واحتمال الأذى منهم؛ لِمَا يرجو من الثواب عند الله، ولِمَا عندهم من المنافع التي لو فرط فيهم ـ لأجل أذاهم ـ لخسر خيرًا عظيمًا.

وينشغل بعيوبه عن عيوب الناس، وقد قال بعض السَّلف: أدركتُ قومًا لم يكن لهم عيوبٌ، فذكروا عيوبَ الناس، فذكر الناسُ لهم عيوبًا، وأدركتُ أقوامًا كانت لهم عيوبٌ، فكفُّوا عن عُيوب الناس، فنُسِيَت عيوبهم.

ومما يُرثى له: حال بعض من ينتسب للعلم في هذا الزمان، الذي انشغل بتتبع عيوب الدعاة إلى الله من العلماء والمصلحين، وتغافل عن حسناتهم، وتقلّد منصب الجرح والتعديل، ولا يكاد أحدٌ يسلم منه، عافانا الله من ذلك، وأشغلنا بأنفسنا وعيوبنا عن عيوب إخواننا المسلمين.

وما أجمل ما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ عن هؤلاء: مِن تلبيس إبليس عَلَى أصحاب الحديث قدح بعضهم فِي بعض؛ طلبًا للتشفي، ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذب عَن

الشرع، وَالله أعلم بالمقاصد.اهـ[١].

ويصدق في حقّ هؤلاء قول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: ومِنَ النَّاسِ منْ طَبعُهُ طَبْعُ خِنْزيرٍ، يَمُرُّ بالطَّيِّباتِ فلَا يَلْوِي علَيْها، فإذا قامَ الْإنْسانُ عنْ رَجِيعِهِ قمَّهُ، وهكَذا كثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَسْمعُ مِنْكَ ويَرَى مِنَ الْمَحاسِنِ أضْعافَ أضْعافِ الْمَساوِئِ فَلَا يَحْفَظُهَا ولَا يَنْقُلُهَا ولَا تُناسِبُهُ، فإذَا رأى سَقْطةً أوْ كَلِمةً عَوْراءَ وجدَ بُغْيَتَهُ ومَا يُناسِبُهَا فَجَعلَها فاكِهَتَهُ ونُقْلَهُ.اهـ[٢].

وعاقبة من هذه حاله لا تُحمد في الدنيا والآخرة، وقد ترجم الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ لأحد علماء وقضاة الشافعية، وذكر بعض آثاره العلمية وقال: شرح التَّنْبِيه فِي نَحْو من عشْرين مجلدًا، ودرس وَأفْتى وَكَثُرت طلبته بِبِلَاد الْيمن واشتهر ذكره وَبعد صيته.

قال: أَخْبرنِي الْجمال الْمصْرِيّ مُحَمَّد بن أبي بكر أَنه شَاهده عِنْد وَفَاته وَقد اندلع لِسَانه وأسودّ، فَكَانُوا يرَوْنَ أَن ذَلِك بِسَبَب كَثْرَة وقيعته فِي الشَّيْخ محيي الدّين النَّوَوِيّ رَحمَه الله تَعَالَى.اهـ[٣].

وغالب من يفعل ذلك يكون فيه من العجب والكبر والتيه ما الله به عليك، ولذلك كثرت أقاويل السلف الصالح في التحذير من هذا الخلق الذميم الرديء، قال بلال بن سعد رَحِمَهُ اللهُ: ذِكْرُك حسناتِك ونِسيانُك سيِّئَاتك غِرّة.

وقال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: ما أحسب أحدًا تفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه.

---

(١) تلبيس إبليس ص١٢٨.

(٢) مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ١/ ٤٠٦.

(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٥/ ٢٣٤.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قال بعض أهل العلم: «تَضَمَّنَتِ الْآيَةُ اشْتِغَالَ الْإِنْسَانِ بِخَاصَّةِ نَفْسِهِ، وتركه التعرض لمعايب النَّاسِ، وَالْبَحْثَ عَنْ أَحْوَالِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُسْأَلُونَ عَنْ حَالِهِ، فَلَا يَسْأَلْ عَنْ حَالِهِمْ». اهـ(١).

رابعًا: علاقته مع الدنيا:

يجاهد نفسه ويربيها على عدم التعلّق بالدنيا، «ولا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله ﷻ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والتوبة»(٢).

ولو أصابته مصيبة: لا يعظم عليه الأمر ما دام أن الله أبقى له دينه، فكل المصائب تهون إلا مصيبة الدين.

وأضرب لذلك مثلًا: لو أن رجلًا ـ لا قدر الله ـ جاءه خبر أنَّ بيتَه أصابته صاعقةٌ فانهدم، وفيه أبناؤه وأهله، لطاش عقله، واضطرب قلبه، وارتعشت أطرافه؛ خوفًا على أولاده وأهله، وإذا علم أنَّ أهله قد نجوا سجد لله شكرًا، مع أنَّ بيته وماله كله قد احترق، لكن لما سلم أغلى شيء عنده في الدنيا هان الباقي، ولا أغلى من الدين شيء.

ويربي نفسه على ألا يحزن على ما فاته منها؛ ليقينه بأنه لن يأتيه منها إلا ما كُتب له فيها، ولو ملك فيها ما ملكه قارون فمصيره الزوال، وليت الأمر يقتصر على ذلك؛ بل إنه سيحاسب على أملاكه وأمواله، قال

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٢٥٢.
(٢) إحياء علوم الدين ٤/ ٣٣٣.

يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلهما في ماله عند موته، قيل: ما هما؟ قال: يُؤْخَذُ منه كلُّه ويُسْأَل عنه كله[1].

مع بذله الأسباب المشروعة لكسب الرزق، حتى لا يذلّ نفسه بسؤال الناس، فيكون عالةً على غيره.

خامسًا: علاقته مع وقته:

يقوم بأداء أعماله اليومية، التي يسير عليها وفق خطة مدروسة ومنهج محكم مُعدّ مسبقًا، ويشمل ذلك: الوظيفة ـ إن كان موظّفًا ـ، والعبادات، والقراءة، والبحث، ونشر العلم بمختلف الوسائل؛ كالدروس والكلمات ومواقع التواصل وتربية أولاده، فإذا أمسى وقد أنهى ذلك حمد الله تعالى، **ولا يفكر في المستقبل ما دام قد فعل الأسباب الحاضرة، ولا يتحسر على ما فاته؛ لأنه ليس في يده، ولم يفرط فيه حتى يندم عليه.**

سادسًا: علاقته مع شيخه:

يراعي حقوق شيخه، وذلك بقيامه بما يلي:

١ ـ يجلّه ويحترمه، ويسعى في خدمته، ويرى له الفضل.

٢ ـ يصبر على حضور مجالسه للاستفادة منه في بداية الطلب خاصة، ولا يتركه لجفاء أخلاقه وفظاظته وقسوته وحدّته، إذا لم يجد من يقوم مقامه من المشايخ، ويمرن نفسه على الصبر على ما يلقاه من قسوة وحدّة إن وُجدت منه، فهو بشر، يعتريه ما يعتري غيره، ولو ترك العلم لأجل جفاء أخلاق شيخه لَمَا تعلّم، ولا كان أهلًا للعلم والرسوخ فيه.

(١) حياة السلف بين القول والعمل ص٧٥٤.

ومن لم يصبر على سوء خلق من فوقه، فحريٌّ ألا يصبر على سوء خلق من هو أقلّ منه؛ كأولاده وطلابه وعامة الناس.

٣ ـ يصله إذا كان بعيدًا عنه لأجل عمله أو لغير ذلك من الأمور، ويُشعره بأنه لم يزل طالبًا، ولا يستغني عن نصائحه وتوجيهاته.

٤ ـ لا يفتي ـ إذا تمكّن من العلم ـ علنًا في البلد الذي فيه، إلا عند الحاجة إليه، وبعد طلب شيخه منه، أو استئذانه منه؛ فإنّ ذلك من كمال الأدب، وديباجِ المروءة، وشعاع الوفاء.

٥ ـ لا يجد حرجًا أن يُخالف شيخه فيما يراه صوابًا بعد أن يرسخ في العلم.

وإذا تحقق خطأ شيخه: بيّن له الخطأ بانفرادٍ وبأسلوب استفسار مهذّب، وإذا أصرّ الشيخ على الخطأ ردّه بلا تحرّج، وخاصة إذا كان الخطأ في باب الاعتقاد، فإنه آكد، ولا يسعه السكوتُ، أو إقراره على ذلك.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: إن معلمي ـ يقصد شيخه أبا حامد الغزالي ـ كان فحلًا من فحولهم وعظيمًا من عظمائهم، وتالله إني كنت محتشمًا له غير راض عنه، وقد رددت عليه فيما أمكن.اهـ[(١)].

هذا هو منهج أهل العلم، حيث يتَّبعون الحق، ويأخذون به، ويردون الباطل ولو أتى من أحبّ الناس إليهم.

سابعًا: علاقته مع طلابه:

يراعي حقوق طلابه، وذلك بقيامه بما يلي:

١ ـ يظهر لهم مشاعره تجاههم وحبه لهم، وشكره لهم على حرصهم واجتهادهم.

---

(١) قانون التأويل ص٥٦٠.

٢ ـ يتفقد مَن غاب منهم، فيتصّل به، أو يُراسله، أو يزورُه.

قال أحد طلاب العلم: غاب مرةً أحدُ الطلاب الذين يحضرون في أحد دروسي، فأرسلت له أحثه على الحضور، فحضر الدرس وقال لي: لم أعزم على الحضور حياءً منك، حيث إني تخلفت بعض الدروس، فاستحييت أن أحضر بعد تخلفي، ولكن حينما رأيت رسالتك انشرح صدري فحضرت.

فانظر كيف تأثَّر بالاهتمام به، والسؤال عنه، وأدى به ذلك إلى العودة للدروس.

٣ ـ يحرص على تفقد حاجاتهم العلمية والماديّة، فمن شعر أنه محتاج مثلًا سعى في قضاء حاجته.

٤ ـ يحثهم على الجدّ والاجتهاد في طلب العلم والقراءة، ويقترح عليهم كتبًا يقرؤونها ثم يعرضون عليه ما يُشكل عليهم خلال قراءتهم، وقد جرب ذلك كثير من المشايخ، فوجدوا لذلك الأثر الكبير في زيادةِ همم طلابهم، وتحصيلهم العلمي.

٥ ـ يُعاملهم بالحلم والرفق، ويخاطبهم بكل لطف ولين، ولا يقسو على من أخطأ منهم وخالف بعض الأدب من غير عمد، ولا يُسمعهم كلامًا قاسيًا، ولا عتابًا، ولا لومًا؛ لأنه يعتبر طلابه مغنمًا ومكسبًا كبيرًا له.

ويُشعرهم أنّ لهم فضلًا عليه؛ حيث كانوا سببًا في أقامةٍ الدروس.

وتالله لن يُنْقص ذلك من قدره؛ بل سيرتفع في عيونهم، ويعظم قدره عندهم.

واللطف مع الطلاب من أعظم أسباب حبهم للشيخ وللعلم ولما يقوله الشيخ، وقد جاء في «طبقات الشافعية الكبرى» لتاج الدين السبكي

(المتوفى: ٧٧١هـ)[١]: كنت كثير الْمُلَازمَة للذهبي، أمضي إِلَيْهِ فِي كل يَوْم مرَّتَيْنِ بكرَةً وَالْعصر، وَأما الْمزي فَمَا كنت أمضي إِلَيْهِ غير مرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوع، وَكَانَ سَبَب ذَلِك أَن الذَّهَبِيّ كَانَ كثير الملاطفة لي، والمحبة فِيّ، وَكنت أَنا شَابًّا، فَيَقَع ذَلِك مني موقعًا عَظِيمًا، وَأما الْمزي فَكَانَ رجلًا عبوسًا مهيبًا.اهـ.

٦ ـ لا يتوقف عن درس بدأ به، ولو لم يحضر إلا طالب واحد، ولا يحزن إذا لم يأت إلا هو، فليست العبرة بالكثرة، ولكن العبرة بالصدق والبركة.

٨ ـ يسعى أن يكونوا أحسن منه، ويحبّ ذلك، وهذا دليل على كمال الإيمان وسلامة الصدر، وقد قال النَّبِيّ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[٢].

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: معنى الحديث: أنَّ الموصوفَ بالإيمانِ الكامل: مَنْ كان في معاملته للناس ناصحًا لهم، مريدًا لهم ما يريده لنفسه، وكارهًا لهم ما يكرهه لنفسه، ويتضمَّنُ أن يفضِّلهم على نفسه؛ لأنَّ كلَّ أحد يُحِبُّ أن يكونَ أفضَلَ من غيره، فإذا أحَبَّ لغيره ما يحبُّ لنفسه، فقد أَحَبَّ أن يكونَ غيره أفضَلَ منه.اهـ[٣].

قال النَّبِيّ ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ**»[٤].

---

(١) ١٠/٣٩٨.
(٢) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ١/٢٢٧.
(٤) رواه مسلم (١٨٤٤).

قال العلَّامة السعدي ﵀: لا شك أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وأن هذه غاية يسعى إليها جميع المؤمنين، فذكر النبي ﷺ في هذا الحديث لها سببين، ترجع إليهما جميع الشعب والفروع:

١ ـ الإيمان بالله واليوم الآخر، المتضمن للإيمان بالأصول التي ذكرها الله بقوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦]، ومتضمن للعمل للآخرة والاستعداد لها؛ لأن الإيمان الصحيح يقتضي ذلك ويستلزمه.

٢ ـ والإحسان إلى الناس، وأن يصل إليهم منه من القول والفعل والمال والمعاملة ما يحب أن يعاملوه به.

فهذا هو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح، فكل أمر أشكل عليك مما تعامل به الناس فانظر: هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا؟

فإن كنت تحب ذلك: كنت محبًّا لهم ما تحب لنفسك.

وإن كنت لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة: فقد ضيعت هذا الواجب العظيم.

فالجملة الأولى: فيها القيام بحق الله.

والجملة الثانية: فيها القيام بحق الخلق.اهـ[(١)].

ويكون لمّاحًا، فإذا رأى من أحدهم موهبة سعى بكلّ جهده إلى لفت نظره إليها، وتنميتها، ومساعدته في ذلك.

قال العلامة ابْنُ بَادِيسَ ﵀: أغلب المعلمين لا يتصلون بتلامذتهم إلا اتصالًا عامًّا لا يتجاوز أوقات التعليم، فيتخرج التلامذة في العلوم

---

(١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، ط. الرشد ص٢٠٦.

والفنون ولكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه ـ إذا كانت للمعلم روح ـ، ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته.

فعلى المعلم الذي يريد أن يكون من تلامذته رجالًا أن يشعرهم ـ واحدًا واحدًا ـ أنه متصل بكل واحد منهم اتصالًا خاصًّا، زيادة على الاتصال العام، وأن يصدق لهم هذا بعنايته خارج الدرس بكل واحد منهم عناية خاصة في سائر نواحي حياته، حتى يشعر كل واحد منهم أنه في طور تربية وتعليم في كفالة أب روحي يعطف عليه ويعتني به مثل أبيه أو أكثر. اهـ[(١)].

ثامنًا: علاقته مع العلم:

له علاقةٌ وطيدةٌ، وصلةٌ قويّة مع العلم والكتب، ومن ذلك:

١ ـ ينشغل بالعلوم التي ينتفع بها في دينه وصلاح قلبه، ولا يسعه جهلُه، ويتقن الأهم والأولى، ثم إذا فرغ بعد ذلك التفت إلى فضول العلم، «والعلم لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا تستقصى أصوله، ولا تنضبط أجزاؤه، فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهمّ فالأهم، والأوكد فالأوكد، وبالفرض قبل النّفل.

وقد قال بعض الحكماء: لست أطلب العلم طمعًا في غايته والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله»[(٢)].

٢ ـ يبادر ـ بقدر الإمكان ـ إلى العمل بما علم؛ ليقينه أنّ العمل ثمرةُ العلم، وإذا لم يُعمل به فهو حجةٌ على صاحبِه.

---

(١) آثار ابن باديس ٤/ ٢٠٢.

(٢) العقد الفريد: ٢/ ٧٧

والعمل بالعلم من أعظم أسباب رسوخه وبركته ونمائه، جاء في «العقد الفريد»[(١)]: والعلم علمان: علم حُمِل، وعلم استُعْمل؛ فما حُمِل منه ضرّ، وما استُعْمل نفع.

فقليل العلم يستعمله العقل خيرٌ من كثيره يحفظه القلب.

قيل للمهلب بن أبي صفرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]: بم أدركت ما أدركت؟

قال: بالعلم.

قيل له: فإنّ غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يدرك ما أدركت.

قال: ذلك علم حُمل وهذا علم استُعمل. اهـ.

وإنك ترى من رفعه الله وانتفع الناس به وظهر أثرُه: إنما هو بسبب استعماله لِمَا علم، لا بسبب كثرة حفظه وسعةِ اطّلاعِه.

٣ ـ يحرص ـ بقدر الإمكان ـ على أن ينتفع به غيره كما انتفع هو به، فلا يدع مجالًا لنشره إلا فعل.

وكن على يقين أنّ كلّ علمٍ أدَّيت زكاته، رسخ في القلب ودرَّت بركاتُه.

---

(١) (٢/ ٧٧).

(٢) هُوَ: الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ، أَحَدُ أَشْرَافِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَوُجُوهِهِمْ وَدُهَاتِهِمْ وَأَجْوَادِهِمْ وَكُرَمَائِهِمْ، وُلِدَ عَامَ الْفَتْح.
وَقَدْ غَزَا فِي أيَّام مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الْهِنْدِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ، وَوَلِيَ الْجَزِيرَةَ لِابْنِ الزُّبَيْرِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ، ثُمَّ وَلِيَ حَرْبَ الْخَوَارِجِ أَوَّلَ دَوْلَةِ الْحَجَّاجِ.
وَكَانَ فَاضِلًا شُجَاعًا كَرِيمًا وَلَهُ كَلَامٌ حَسَنٌ.
تُوُفِّيَ غَازِيًا سَنَةَ ثِنْتَيْنِ وَثَمَانِينَ بمرو الروذ وعُمْره ست وَسَبْعُونَ سَنَةً رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
وَكَانَ مِنَ الشُّجْعَانِ وَلَهُ مَوَاقِفُ حَمِيدَةٌ، وَغَزَوَاتٌ مَشْهُورَةٌ فِي التُّرْكِ وَالْأَزَارِقَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَوَارِجِ. [البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٥٢].

وما من كاتب إلّا ستبقى كتابتُه وإنْ فنيت يداه
فلا تكتب بكفّك غير شيء يسرّك في القيامة أن تراه

ومن أعظم أسباب محق بركة العلم كتمه عن أهله، والتأخر في نشره، وقد أخذ الله تعالى العهد على أهل الكتاب من قبلنا أن يبينوا ويعلّموا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ رحمهما الله: هِيَ فِي كل من أوتي علم شيء مِنَ الْكِتَابِ، فَمَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيُعَلِّمْهُ، وَإِيَّاكُمْ وَكِتْمَانَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ هَلَكَةٌ.

وَقَالَ بعض السلف: لَا يَحِلُّ لِعَالِمٍ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ، وَلَا لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧]، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣][(١)].

فالعلم الشرعي أمانة في عنق كلّ مسلم، فالعالِم يجب عليه أنّ ينشره، والجاهل يجب عليه أنّ يتعلّمه ويسأل أهله.

ولا يجوز للعالم أنّ يمنّ على تعليمه أو يشعر باستعلاء على السائل والطالب؛ فبذله للعلم واجب عليه لا منّة له بذلك، وكما أنّ للمال زكاة، فللعلم زكاة كذلك، ولا ينبغي لطالب العلم والسائل أن يجد حرجًا في سؤاله للعالم، فهذا حقّ له على أهل العلم، ولا يغفل عن اختيار الوقت المناسب، والأسلوب الأمثل عند السؤال بقدر الاستطاعة.

(١) تفسير القرطبي ٥/٤٥٨.

٤ ـ لا يسمح لوقته أن يضيع بلا فائدة تعود عليه بالنفع، ويستثمر الأوقات القصيرة كاستثماره الأوقات الطويلة؛ كالوقت الذي يكون قبيل الطعام، وأوقات العمل، وما بين العشاءين، وإذا كان الوقتُ أقصرَ مِن أنْ يستثمره، أو كان في مكان لا يسمح بالقراءة اشتغل بالذكر أو الحديث مع من يدخل السرور في قلبه كالأهل والأقارب، راجيًا من ربه أن يكتب له بذلك أجرًا وثوابًا.

وقد نذر جلّ وقته للعلم والعمل به والدعوة إلى الله والتعليم بقدر الإمكان، ويسأل الله أن يعفو عن تقصيره الكبير.

ومَن هذه حاله: سيجد ـ بعون الله تعالى ـ في طلب العلم والقراءة من اللذة والسرور ما لا يخطر على بال، ومن اللطائف ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أنّ أهل الجنة ـ جعلنا الله منهم ـ يتذاكرون ما كان بينهم من أمور الدنيا: «فتذاكُرُهم فيما كان يُشْكِل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسُّنَّة وصحة الأحاديث أولى وأحرى؛ فإنَّ المذاكرة في الدنيا في ذلك ألذُّ من الطعام والشراب والجماع!!

وهذه لذةٌ يختصُّ بها أهلُ العلم، ويتميزون بها على مَن عداهم»(١).

فالعلم بالنسبة له كالماء بالنسبة للسمكة، لا عيش ولا حياة له بدونه، فهو الذي ـ بعد توفيق الله ـ بصَّره من العمى، وهداه من الضلالة، وأخذ بيده إلى الصراط المستقيم، وعرف به عيوبه، وأوقفه على سوء طِباعِه، فاشتغل بتصحيحها عن عيوب غيره، وأخرجه من

(١) حادي الأرواح: ٢٨٥.

مستنقع الدنيا الدنيئة إلى رحاب الآخرة، ومن عنايته بجسده إلى عنايته بروحه، ومن الاشتغال بمستقبله المحدود القصير إلى الاشتغال بمستقبله الذي لا نهاية له.

ولذلك تجد العلماء الربانيين قد نذروا كلّ حياتهم في العلم والعمل به وتعليمه، وأفنوا أعمارهم في البحث وطلب العلم، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما جاء في كتاب «تاج العروس» للجوهري[(١)]: وَفِي «لِسَان الْعَرَب»[(٢)]: وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ أَفْعَل فَهُوَ مُفْعَلٌ: أَسْهَبَ فَهُوَ مُسَهَبٌ، وأَلْفَجَ فَهُوَ مُلْفَجٌ، وأَحْصَنَ فَهُوَ مُحْصَنٌ، فَهَذِهِ الثَّلَاثَة جَاءَت بالفَتْح..

وَقَالَ ثعْلَب: ووجدْتُ بعد سَبْعِين سَنَةً حَرْفًا رَابِعًا وهُوَ: أجْرَشَتِ الإِبِلُ: سَمِنَت فَهِيَ مُجْرَشَةٌ.

وفيه[(٣)]: قال ابنُ خَالَوَيْه: وَجَدْتُ هذِه اللَّفْظَة ـ يَعْنِي: فَهِيَ مُجْرَأَشَّة ـ بعدَ سَبْعينَ سَنَةً، قَالَ الصّاغَانِيّ: وأَنا وَجَدْتُ هذِه اللَّفْظَةَ بعدَ سَبْعِينَ سَنةً، وَالْحَمْد للهِ على طُولِ الأَعْمارِ، وتَرَدُّدِ الآثارِ، ومُصَاحَبَة الأَخْيَارِ، ومُجَانَبَةِ الأَشْرارِ، والإِكثارِ من الازْدِياد، والحَجّ والاعْتِمَار، جَعَلني اللهُ تَعَالَى من أَوليائه الأَبْرَار، المستغفرين بالأسحار، الذَّاكِرِينَ الله بالعَشي والإِبْكار.اهـ.



(١) ٣/ ٧٩.
(٢) ٢/ ٣٥٨.
(٣) ١٧/ ١٠٢.

١٦ «وطّن نفسك على أن تُعلّم وتَتعلّم، وتنصح وتُنصح، وتنقد وتُنقد»:

طالب العلم لا يزال يتعلّم حتى يموت، ولو بلغ من العلم والسنّ ما بلغ، وبعض طلاب العلم ممن بلغ في العلم أو المنصب ما بلغ، تجده يوطن نفسه على أنه ينصح ويعظ ويعلّم وينتقد، ولكن لو نقده أحدٌ أو نصحه أو وعظه أو علّمه: استنكف ولم يفرح ولم يتقبل ذلك بصدر رحب، وهذا خللٌ يجب أن يُعالج.

فوطّن نفسك ـ يا طالب العلم الموفق ـ إلى أن تلقى ربك على أن تحرص أن تُعلّم وتَتعلّم، وتنصح وتُنصح، وتنقد وتُنقد، وبهذا تزكو نفسك، ويصلح قلبك، ويكبر عقلك، ويبارك في علمك وعمرك وأثرك بعد وفاتك.

واعلم أنّ أعظم أسباب استنكاف بعض طلاب العلم عن تقبل النصح والنقد البنّاء، ما ذكره ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِه: من اقتصر على ما يعلمه، فظنه كافيًا: استبد برأيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا له من الاستفادة.

والمذاكرةُ تبيِّن له خطأه.

وربما كان معظمًا في النفوس، فلم يُتَجَاسر على الرد عليه، ولو أنه أظهر الاستفادة لأهديت إليه مساوئه فعاد عنها.اهـ[١].

فقل لمن حولك بصدق: رحم الله من أهدى إليّ عيوبي.

---

(١) صيد الخاطر: ١٤٩.

١٧ «الأولى لطالب العلم ألا يقف عند حدٍّ معيّنٍ في طلب العلم»:

يُلحظ على بعض طلاب العلم عند تمكنه في فنّ من فنون العلم؛ كعلم القراءات مثلًا، أو النحو، أو الأدب، أو التفسير، أو غيرها من فنون العلم، أنه يكتفي بهذا الفنّ الذي أجاده، ويجد صعوبةً نفسيّةً في التضلّع من الفنون الأخرى المهمة، التي تتطلب منه ثني الركب عند المشايخ؛ لأنه اشتَهر بين محبيه وأفراد مجتمعه بذلك الفنّ.

ولا شك أنّ طالب العلم الموفق لا يلتفت إلى مثل هذه الوسوسة الشيطانيّة؛ لأنها ستحصره في مجال فنّه الذي تمكن فيه، والفنون يُكمّل بعضُها بعضًا.

فجديرٌ بطالب العلم التزوّدُ من العلم ما دام في الإمكان.

ولا يعني ذلك مطالبة المتخصص في فنٍّ أن يتخصص في جميع الفنون؛ بل يعني: أن يُلِمّ بالعلوم الأخرى إلْمَامًا يرفع جهله بها جملة لا تفصيلًا؛ لأنَّ جهله بها عيبٌ ونقصٌ باتفاق العلماء والعقلاء.



١٨ «مراحل العلم»:

للعلم ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة المتعة به، ومن ذاق طعم العلم والقراءة فقد ذاق شيئًا من طعم السعادة والأنس واللذة.

الثانية: مرحلة الرسوخ فيه، وذلك بكثرة البحوث، وحفظ المتون وإتقانها، وقراءة الكتب الْمُطوّلة، وتكرار مراجعة الكتب التي قرأها من قبل.

الثالثة: مرحلة تعليمِ العلم ونشرِه.

فبعض طلاب العلم وقفوا عند المرحلة الأولى، حيث شقّ عليهم الانتقال إلى المرحلة التي بعدها؛ لأنها شاقة وتحتاج إلى صبر ومصابرة، وربما انتقلوا إلى المرحلة الثالثة؛ لأنها لا تحتاج إلى كبير عناء، أو لأنها وافقت رغباتهم في الدعوة والتعليم، ولكن الغالب أنّ هؤلاء تكثر منهم الأخطاء والزلات، والتذبذب والتقلب، والضعف في المادة العلمية.

وبعض طلاب العلم حينما انتقلوا إلى المرحلة الثانية وقفوا عندها؛ لأنهم لَمّا ذاقوا طعم البحث، وقراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ، والرسوخ في العلم: شق عليهم نشر العلم؛ لأنهم سيضطرون إلى فراق الكتب لساعات طويلة، وسيتركون مألوفهم، وهذا شاقٌّ على النفس.

والقليل من طلاب العلم من يمر على جميع المراحل، ويعطي كل مرحلة حقها، ولا يُطاوع رغبات نفسه؛ بل ينظر إلى مراد الله تعالى فيُجاهدها على ذلك، وهؤلاء هم علماء الأمة، وهم الذين ينتفعون بالعلم أتم الانتفاع، وينفع الله بهم الناس أكمل النفع؛ «فإنَّ كلَّ مَن عمل

بتعليمه أو علم شيئًا مما كان هو السبب في علمه فذلك العالم والمتعلم شريكٌ له في الأجر إلى يوم القيامة على آباد الدهور، فيا لها منزلةٌ ما أرفعها، أنْ يكون المرءُ أشلاء متمزِّعة في قبره، أو مشتغلًا في أمور دنياه، وصحفُ حسناته متزايدة، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، ومواترة عليه من حيث لم يقدر!»[(١)].

اللَّهُمَّ اجعلنا منهم يا ربِّ العالمين.



(١) رسائل ابن حزم ٣/ ١٥٣.

١٩ «الحدة التي يُواجهها الطالب في بداية الطلب من بعض مشايخه تفيده بعد ذلك»:

قد يُواجه طالب العلم حدّة وصلابة في التعامل من بعض المشايخ، وهذا قد يكون لأجل رغبتهم في تربية طالب العلم على الجد وتعظيم العلم، وقد يقول في نفسه حينها:

ليت مشايخنا يستعملون معنا اللين والرفق، ويبتسمون في وجوهنا، ويسألون عنا إذا افتقدونا.

فهذه شيء من المشاعر التي تُخالج قلوب معظم طلاب العلم، والأهم من ذلك هو ألا ينسى هذه المطالب حينما يمنّ الله تعالى عليه بالرسوخ والجلوس للتعليم، وإلقاء الدروس، واستقبال المستفتين.

فلْيُعامل طلابه وعموم الناس بالبشر، والحلم، والرحمة، والأخلاق الحسنة.

وبذلك يكون قد استفاد من علمه بتهذيب أخلاقه، ويكون أهلًا لأن يكون قدوةً يُقتدَى به، فيُؤثّر على الناس بأخلاقه، وسمتِه، وهذا أشدّ تأثيرًا من الكلام النظريّ.

ومن أعظم ما يجنيه من ذلك: حبّ الناس له، وسعيهم في خدمته، ونشر علمه.



٢٠ «النظرة الصحيحة لقوة الحفظ وللحفاظ»:

قد يجد بعض طلاب العلم في بداية طلبه للعلم حسرةً على تأخره في الطلب إذا رأى من هو أحفظ وأتقن للعلم منه، بسبب طلبه للعلم في الصغر.

وإذا رأى الحفاظ يُعجب بهم، ويُقارنهم بغيرهم، فيكبرون في عينه، ويرى أنّ مكانتهم ورفعتهم بحسب كثرة علمهم، وقوة حفظهم.

وإذا منّ الله تعالى عليه بالقرب منه، ومعرفته والأنس به، ستصبح همته منصبةً في نيل رضا الله، وفي العمل بعلمه، ونشره ونفع الناس، بعد أن يأخذ الحظ الأوفر من العبادة.

وستتغير نظرته تجاه الحفاظ، وسينظر إلى عمل العالم بعلمه، وتواضعه وأخلاقه ونشره لعلمه.

والعلم بالنسبة للمسلم وسيلةٌ لا غاية، فهو إنما يطلبه ليُوصله إلى رضا ربه عنه، ويرفع الجهل عن نفسه، وينشر دين الله بما يقدر عليه.

ومن ذاق طعم الإيمان وحلاوة العبادة، ومعرفة الله تعالى فقد دخل عالم السعادة والعزة والتوكل واليقين والصبر والزهد.

وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ، فَلْيَلْزَمْ عَتَبَةَ الْعُبُودِيَّةِ.

وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: الْقَلْبُ لَا يَصْلُحُ وَلَا يُفْلِحُ وَلَا يَلْتَذُّ وَلَا يُسَرُّ وَلَا يَطِيبُ وَلَا يَسْكُنُ وَلَا يَطْمَئِنُّ إلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ.

والْقَلْب إذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ: لَمْ يَكُن عِنْدَهُ شَيْءٌ قَطُّ أَحْلَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَلَذَّ وَلَا أَطْيَبَ.

وَلَو حَصَلَ لَهُ كُلُّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ مِن الْمَخْلُوقَاتِ لَمْ يَطْمَئِنَّ وَلَمْ يَسْكُنْ. اهـ[(١)].

ولا تظنّ أنك لن ترسخ في العلم إلا بقوة ذاكرة، وسرعة حفظ؛ فإنّ كثيرًا من العلماء لم يُرزقوا قوة في الذاكرة، وسرعة في الحفظ.

قال أحد طلاب العلم: حينما بدأت في طلب العلم كنت أعاني من ضعفٍ شديد في الحفظ، وسرعةٍ في النسيان، وحاولت أنَّ أحفظ بعض المتون الصغيرة في بداية الطلب فما استطعت إلا بشق الأنفس، وأما المتون الطويلة فلم أستطع، فقد بدأت في حفظ «صحيح مسلم» على أحد مشايخي ولم أستطع إكماله، وحينما بدأ بعض طلاب العلم في تسميع الصحيحين تسابق كثير من طلاب العلم في الحفظ والتسميع، فدخلت في البرنامج، وحاولت وجاهدت ولكنني لم أستطع، وكنت أسمع من مشايخي أن الحفظ من أركانِ طلب العلم، ولا يكون إمام إلا حافظ، وحينما كنت أحفظ متن الرحبية مررت على قوله:

(واحفظ فكل حافظ إمام)، حتى خيّل إليّ أنني لا أصلح لطلب العلم، وحينما رأيت نفسي لا تستجيب للحفظ: اتجهت لقراءة المتون مع شروحِها، وقراءةِ الكتب المتوسطة، ثم الكتب المطولةِ بعد ذلك، والاقتصار على ما يخف علي حفظه، واستعنت بالله، وعلمت أن الله تعالى لا يغلق بابًا إلا فتح أبوابًا كثيرة، فرأيت نفسي تميل إلى القراءة والفهم والتأمل والتدبر، واستعنت على الضبط **بأربعة أمور**:

١ ـ الاستعانة بالله وكثرة دعائه والتضرع إليه.

(١) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٩٤.

٢ ـ تكرار قراءة المتون والشروحات عليها.

٣ ـ البحث والتصنيف.

٤ ـ اختصار الكتب وتهذيبها، فانتفعت كثيرًا.

واستطعت ـ بفضل الله تعالى ـ تحصيل كثير من العلوم والفنون، وداومت على ذلك حتى أخرجت عدة كتب بحمد الله، فأيقنت أنّ من طلب العلم بجدٍّ وعزمٍ لا يمنعه من التمكين والضبط ضعف حفظ ولا سرعة نسيان ولا تأخر في الطلب. اهـ.

ورحم الله ابن الجوزي حين قال: من لم يجد نشاطًا للحفظ فليتركه؛ فإنَّ مكابرة النفس لا تصلح. اهـ[1].

وأعرف طالب علم، اقتنع من أنّ الحفظ هو السبيل الأهم، والطريق الذي يجب أن يُسلك أولًا للرسوخ في العلم، فترك القراءة، وكان عمرُه قد جاوز الثلاثين، وجعل يحفظ بعض المتون العلميّة، حتى أمضى بضعةَ أعوام على ذلك، ولم يكمل حفظ بقية المتون التي أخذ على نفسه حفظها، وهجر القراءة والمطالعة، للتفرغ للحفظ، بعد أن كان مدمنًا عليها!

وهذا من الأخطاء في المنهجية، وسببه عدم الرجوع لمشورة ونصح أهل العلم.

والحفظُ ليس غاية؛ بل هو وسيلة، وعدم اعتبار السنّ المناسب للتفرغ للحفظ، فإذا أفنى طالب العلم وقته في الوسيلة وأهمل الغاية: فقد خسر وضيَّع وقته وفرّط.

(١) صيد الخاطر: ٢١٤.

ولا يُفهم مما قلتُه إهمال الحفظ مطلقًا، والزهد في ذلك لِمَن لا يمتلك حافظةً قويّة، فهذا لا يصح أبدًا، وأولى ما حُفظ: كتاب الله تعالى، ثم المتون المهمة، لا سيما متون الأحاديث المختصرة.

وطالب العلم ينبغي عليه أنْ يُعنى بحفظ القرآن وفهمِه، وكثيرٌ من طلاب العلم ـ بل وبعض العلماء ـ تحسّروا وندموا على عدم عنايتهم بحفظ القرآن زمن الصبا والشباب، ولو حاولوا بعد ذلك لَمَا استطاعوا إلا بصعوبة ومشقة قد لا يُطيقونها؛ إما لكبر سنهم، أو ضعف تركيزهم أو حفظهم، أو كثرة أشغالهم.

۞ ۞ ۞

٢١ «أقسام الناس بالنسبة للحفظ والفهم»:

انقسم طلابُ العلم المخلصون الصادقون بالنسبة للحفظ والفهم إلى أقسام أربعة:

القسم الأول: من أُعطي قوةً في الحفظ والفهم، فهذا هو الأكمل والأنفع.

القسم الثاني: من أُعطي قوةً في الفهم، وضعفًا في الحفظ، فهذا قد عوّضه الله بالفهم عن الحفظ، وربما فتح الله عليه من دقائق الاستنباطات والتأملات ما لم يُفتح على غيره، حيث صرف جلّ همّه في الفهم، والتدبّر، والتأمل، والاستنباط، وتدوين الخواطر الهامة، ونفائس العلوم النادرة، واشتغل باختصار الكتب المهمة والمطوّلة، التي لا يقدر عليها الكثير من الحفاظ والعلماء.

فلا تظن - يا طالب العلم - أنّك لن تصل إلى الرسوخ في العلم ونفع الأمة إلا بذاكرة قويّة، وحافظةٍ شديدة؛ فإنّ هذا الظنّ من وسوسة الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء.

القسم الثالث: من أُعطي قوةً في الحفظ، وضعفًا في الفهم، فهذا نفعه كان أكثر وأعظم قبل زمن التدوين، فأما بعد ذلك فنفعه أقلّ من القسم الثاني في الغالب.

وهو على خيرٍ إنْ شاء الله، فقد يُفِيد طلاب العلم والعلماء باستظهار المتون العلمية، وإيراد النصوص الشرعية، والدلالة على نصوصٍ ومسائل عزبت عن كثير من العلماء وطلاب العلم.

القسم الرابع: من أُعطي ضعفًا في الحفظ والفهم، فهذا مبتلى،

وإذا صدق مع الله تعالى وصبر وصابر في سبيل تحصيل العلم الذي يقربه إلى ربه: سيفتح له أبوابَ فضلِه وكرمِه وجودِه، فمن أكثر طرق الباب فُتح له.

وكلُّ هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا خدمة دينهم، وتبليغ رسالات ربهم: سَيُبَلِّغُهم الله بكرمه وجوده مراتب العلماء الراسخين ولو لم يصلوا إلى مراتبهم، أو ماتوا قبل تمكُّنِهم، فقد ثبت في «صحيح مسلم»(١) أنّ النبي ﷺ قال: «**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**».

فرتّب الأجر على سلوك طريق العلم، لا على النتيجة، وهذا من فضل الله ورحمتِه.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنّ الْإِرَادَةَ الْجَازِمَةَ إذَا فَعَلَ مَعَهَا الْإِنْسَانُ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ: كَانَ فِي الشَّرْعِ بِمَنْزِلَةِ الْفَاعِلِ التَّامِّ، لَهُ ثَوَابُ الْفَاعِلِ التَّامِّ وَعِقَابُ الْفَاعِلِ التَّامِّ.

قال رَحِمَهُ اللهُ: الْمُرِيدُ إرَادَةً جَازِمَةً مَعَ فِعْلِ الْمَقْدُورِ هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْعَامِلِ الْكَامِلِ، وَإِن لَمْ يَكُن إمَامًا وَدَاعِيًا كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

فَاللهُ تَعَالَى نَفَى الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْمُجَاهِدِ وَالْقَاعِدِ الَّذِي لَيْسَ بِعَاجِزٍ، وَلَمْ يَنْفِ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْمُجَاهِدِ وَبَيْنَ الْقَاعِدِ الْعَاجِزِ.

(١) (٢٦٩٩).

بَل يُقَالُ: دَلِيلُ الْخِطَابِ يَقْتَضِي مُسَاوَاتَهُ إِيَّاهُ، وَلَفْظُ الْآيَةِ صَرِيحٌ، اسْتَثْنَى أُولُو الضَّرَرِ مِن نَفْيِ الْمُسَاوَاةِ؛ فَالِاسْتِثْنَاءُ هُنَا هُوَ مِن النَّفْيِ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّ أُولِي الضَّرَرِ قَد يُسَاوُونَ الْقَاعِدِينَ، وَإِن لَمْ يُسَاوُوهُم فِي الْجَمِيعِ..

وَكَذَلِكَ الْحَرِيصُ عَلَى السَّيِّئَاتِ الْجَازِمُ بِإِرَادَةِ فِعْلِهَا إِذَا لَمْ يَمْنَعْهُ إِلَّا مُجَرَّدُ الْعَجْزِ، فَهَذَا يُعَاقَبُ عَلَى ذَلِكَ عُقُوبَةَ الْفَاعِلِ؛ لِمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**، قِيلَ: هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: **إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[(١)]، وَفِي لَفْظٍ: «**إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ**»[(٢)].

وَمُجَرَّدُ الشَّهْوَةِ وَالتَّمَنِّي لَيْسَ إرَادَةً جَازِمَةً، وَلَا يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْفِعْلِ. اهـ[(٣)].

فهنيئًا لطالب العلم الصادق، المخلص، التقيّ، الذي بذل وقته ونفسه في سبيل الله، وخدمة دينه، وإعلاء شرعه، حيث سيبلغه الله مراتب العلماء الراسخين الربانيين، وسيحشر معهم بإذن الله تعالى.

واعلم ـ **يا طالب العلم** ـ أنك إذا أطعت الله تعالى وأطعت رسوله ﷺ، وقمت بوظيفة الأنبياء في الدعوة إلى الله، وطلب العلم، ومجاهدةِ نفسك على ذلك: فأنت سائرٌ على طريق النبي ﷺ وأصحابه ﵃، ومصاحبٌ لمنهجهم، وداعٍ معهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]: كون النبي قاتل معه أو قُتِل

(١) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨). (٢) وهذا اللفظ لمسلم.
(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ٧٢٢ ـ ٧٦٥.

معه[(١)] ربّيون كثير لا يستلزم أن يكون معهم في الغزاة؛ بل كل من اتبع النبي وقاتلَ على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كل من قُتِل على دينه فقد قُتِل معه.. ويكون في هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي ﷺ وإن كان النبي قد مات.

والصحابة الذين كانوا يغزون في السرايا والرسولُ غائب عنهم كانوا معه وكانوا يقاتلون معه، وهم داخلون في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فليس من شرط مَن يكون مع المطاع أن يكون رائيًّا للمطاع.اهـ[(٢)].

وهناك أدلة تشهد على ذلك: **منها**: ما ثبت عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَدْخُلُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ، إِلَّا أُمِّ سُلَيْمٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «**إِنِّي أَرْحَمُهَا قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي**». متفق عليه[(٣)].

وأخوها: حرام بن ملحان قتل يوم بئر معونة كما هو معلوم، ومع ذلك: فقد أخبر بأنه قتل معه، وإن لم يقتل معه في نفس المكان، ولكنه قُتل نصرةً لدينه، ومن قُتل كذلك فقد قُتل معه.



(١) قَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَأَبُو عَمْرو ويعقوب: ﴿قُتِلَ مَعَه﴾ بضم القاف وكسر التاء بلا ألف مبنيًّا للمفعول.

(٢) جامع المسائل، لابن تيمية، ط. عالم الفوائد ٣/ ٦٢.

(٣) البخاري (٢٨٤٤)، ومسلم (٢٤٥٥).

٢٢ «تذكر دائمًا حالتك قبل اشتغالك في طلب العلم»:

مما يزيد طالب العلم همّةً ونشاطًا: تذكره بين الفينة والأخرى لحالته قبل اشتغاله بالعلم، فيتذكّر كيف كانت اهتماماتُه وطموحاتُه، وبما كان يقضي جلّ ساعاتِ يومِه وليلتِه، وكيف كانت علاقته بربّه ﷻ، وعلاقتُه مع والديه وإخوانه وقرابته وعموم مجتمعه، وكيف كانت نظرتُه للحياة الدنيا، وغفلته عن الآخرة، فكلّما تذكّر مثل هذه الأمور وقارنها بحالِه بعد اشتغاله بطلب العلم، رأى الفرق الكبير، والبَوْن الشاسع بينهما، كما بين الليل والنهار، من الظلمة والإسفار، فيتبيّن له بجلاء محض فضل الله عليه، أن اصطفاه وشرح صدره لأنفس ما تُقضى به الأعمار، وتثقّل به موازين الحسنات يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ولا جاه، فيزداد رغبةً وهمّةً ونشاطًا وفرحًا وابتهاجًا بطلب العلم، والصبر على ما يلقاه في سبيل ذلك.

فما يسعه إلا أن يقول: لك الحمد أنْ هديتني وعلمتني وأنقذتني، فالفضل لك وحدك، والخير منك وحدك، فلولا توفيقك لَمَا أُلهمت الحق والعلم، ولولا فضلك لَمَا حُبب إلي العلم.



الفنّ الثاني

التصانيف النافعة

التصنيف من أعظم وسائل الدعوة إلى الله تعالى لمن صدقت نيّتُه، وحسن قصده، وإنما أفردته لأهميّته، وكثرة الحاجة إليه، وصعوبة سلوك جادّته.

والتصنيف لا يسلكه طالب العلم في بداية الطلب؛ بل يعتني بالحفظ، والفهم، والقراءة، وحضور الدروس المفيدة.

وإنما يسلك التصنيف طالب العلم المتقدّم، الذي حصّل وانتفع، ويكون هدفُه من التصنيف نفع نفسه أولًا.

وهذه وصايا وخواطر نافعةٌ في موضوع التصنيف والبحث:

١ «أربعة أمور تُساعد على الكتابة والتصنيف»:

إذا كنت تُريد تصنيف أكثر من كتاب، وكتابةَ عشرات المقالات أو الخطب في أقلّ من عام، فإنّ ذلك ليس أمرًا مُسْتحيلًا ولا صعبًا بإذن الله تعالى، **وهو يحتاج منك إلى أربعة أمور:**

الأول: كثرة القراءة والاطلاع.

الثاني: كثرة التأمل والتفكر فيما تقرأ، وفيما تُشاهده في الواقع.

الثالث: تدوين الفوائد التي تمر بها، والخواطر التي تخطر ببالك.

الرابع: تنظيم كتابتها وفهرستها.

وإليك التفصيل:

عندما تقرأ كتابًا، ومرّت بك فائدةٌ علميةٌ أو تربويَّة: فاقْتبسها، ودوّنها في كرّاسةٍ أو ملف (وورد) ـ وهو الأفضل ـ، واجْعلها موضوع خطبةٍ لك ـ إنْ كنت خطيبًا ـ، أو مقالٍ لك تَنشره في وقته أو فيما بعد، أو مادّةً لكتابٍ تُؤلّفه، وعلّق عليها بما يجول في خاطرك ـ إنْ أمكن ـ.

والنفس تنشط للتعليق على الكلام الذي تستحسنه خلال قراءتك، وجمعِ ما يَعضدُ ما قرأتَه، فلن تَندم على ذلك أبدًا، وهي فرصةٌ يصعبُ تكرارها بعد ذلك.

ومع مرور الأيام وتزايدِ المقالاتِ والْمُختصرات والمذكرات، وتنوعِ العناوين لكلِّ واحدٍ منها: تَجد نفسك قد اعتادت على التأليف والكتابة، وتَجد عندك بحوثًا ومقالاتٍ كثيرةً، لو أخرجتَها لعمَّ نفعُها، وجرى لك أجرُها.

وبهذه الطريقةِ تستطيع تأليف عدّة كتب، وكتابة عشرات الخطب، أو المقالات النافعة، في أقلّ من عام.

فما عليك إلا تنظيم الفوائد التي تحصل عليها، والخواطر التي تخطر ببالك وتُدوّنها، ثم اجعل كلّ فائدةٍ وخاطرة في ملف (وورد) خاصٍّ بها، ومع مرور الأيام والأسابيع والشهور: ستجد الملفات قد امْتلأت، ويبقى عليك ترتيبُها، والعنايةُ بها بحثًا واسْتدلالًا، ضمِّ النظير إلى نظيرِه.

فمثلًا: إذا مرّت بك فائدةٌ نفيسةٌ، أو حكمةٌ بليغةٌ، أو بيتُ شعرٍ، أو خاطرةٌ عن التواضع، فقم مُباشرةً بتدوينِها بملف (وورد)، وسمّه: خلق التواضع، وكُلَّما مرّت بك فائدةٌ أو آيةٌ أو حديثٌ أو خاطرةٌ تتعلق بهذا الموضوع فدوّنها.

وهكذا إذا مرت بك فائدةٌ ونحوها عن تربية الأولاد، والصبر، والقناعة، والبيع، والربا، والعقيدة، والأصول، والنحو، وغيرها من الموضوعات، سواءٌ في الكتب، أو في المجلات والصحف، أو في الهاتف عبر الرسائل التي تأتيك، وخاصَّةً في الْمَجموعات العلميّة التي تضمّ عدة أشخاصٍ، فدوّنها في ملفٍّ خاصٍّ بها.

ولن يَنْتَهي عامُك بتوفيق الله وعونِه ـ إنْ كنت جادًّا ومُنظّمًا ـ إلا وقد كتبت مئات الصفحات النافعة المفيدة، التي تُكوّن منها مُؤلّفًا مُفيدًا، وخطبًا نافعة، ومقالاتٍ جيدة.

وأعرف ـ غيرَ واحدٍ ـ قام بهذه الطريقة ففُتح له فتحًا عظيمًا، وكتب من البحوث والكتب ما لم يخطر له على بال، وخرجت له مؤلفات عمّ نفعها.

ولعل هذا هو سرّ كثرة تأليف بعض المشايخ المعاصرين، حيث إنهم يُخرجون عشرة مُؤلَّفات أحيانًا في عامٍ واحد.

وقد كان هذا ديدن العلماء السابقين واللاحقين، قال العلامة الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ اللهُ في كتابه: «حلية طالب العلم»[(١)]:

«ابذُلِ الجُهْدَ في حفظ العلم حفظَ كتاب؛ لأنَّ تقييدَ العلم بالكتابةِ أمانٌ من الضيَّاعِ، وقَصْرٌ لمسافةِ البحث عند الاحتياجِ، لا سيَّما في مسائلِ العلمِ التي تكونُ في غير مظانِّها، ومن أَجَلِّ فوائده أنَّه عند كِبَرِ السنِّ وضَعْف القوى، يكون لديك مادَّةٌ تَسْتَجِرُّ منها مادَّةً تكتبُ فيها بلا عناءٍ في البحث والتقصِّي.

ولذا؛ فاجعل لك «كُناشًا»، أو «مُذَكِّرة»، لتقييدِ الفوائدِ، والفرائدِ، والأبحاثِ، المنثورةِ في غير مظانِّها، وإنِ استعملتَ غلافَ الكتابِ لتقييدِ ما فيه من ذلك؛ فَحَسَنٌ، ثم تنقُلُ ما يجتمعُ لك بَعْدُ في مذكِّرة مرتبًا له على الموضوعاتِ، مُقَيِّدًا رأْسَ المسألة، واسْمَ الكتابِ، ورقمَ الصفحة والمُجَلَّد، ثم اكْتُب على ما قَيَّدْتَهُ: «نُقِل»، حتى لا يختلطَ بما لم يُنْقَل، كما تكتبُ: «بَلَغَ صفحة كذا» فيما وَصَلْتَ إليه من قراءةِ الكتاب، حتى لا يفوتَك ما لم تبلُغْه قراءةً.

وعليه؛ فَقَيِّدِ العلمَ بالكتاب، لا سيَّما بدائعَ الفوائدِ في غير مظانِّها، وخَبَايا الزوايا في غير مساقِها، ودُرَرًا منثورةً تراها وتسمعُها تخشى فواتها، وهكذا؛ فإنَّ الحفظَ يضعُفُ، والنِّسيان يَعْرِضُ.

وإذا اجتمع لديك ما شاء اللهُ أن يجتمعَ فَرَتِّبْه في: «تذكِرة»، أو

(١) ص١٧٥ ـ ١٧٦.

«كُنَاش» على الموضوعاتِ، فإنَّه يُسْعِفُك في أضيقِ الأوقاتِ، التي قد يَعْجَزُ عن الإدراكِ فيها كبارُ الأثباتِ». اهـ.

وقال ابن عقيل الحنبلي في مقدمة كتابه: «الفنون» الذي طُبع منه مجلدان: «فما أزال أُعَلِّق ما استفيد من ألفاظ العلماء، ومن بطون الصحائف، ومن صيد الخواطر التي تنثرها المناظرات والمقابسات في مجالس العلماء ومجامع الفضلاء». اهـ.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه «صيد الخاطر»: «لما كانت الخواطر تجول في تصفح أشياء تعرض لها، ثم تعرض عنها فتذهب، كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكيلا ينسى.

وكم قد خطر لي شيءٌ فأتشاغل عن إثباته فيذهب، فأتأسف عليه.

ورأيت من نفسي أنني كلما فتحت بصر التفكر، سنح له من عجائب الغيب، ما لم يكن في حساب، فانثال عليه من كثيب التفهيم ما لا يجوز التفريط فيه، فجعلت هذا الكتاب قيدًا لصيد الخاطر». اهـ.

تأمل قوله: «كلما فتحتُ بصر التفكر سنح له من عجائب الغيب ما لم يكن في حساب»! وهذا مُجرّب وواقع، فكلّما سمحت لفكرك بالتأمل ثم دوّنت ذلك فُتح لك من اللطائف والعجائب.

ومن أمثلةِ كتب الفوائد والخواطر: «بدائع الفوائد»، و«الفوائد» لابن القيم، و«مجموع الفوائد واقتناص الأوابد» للشيخ عبد الرحمٰن السعدي و«كناشة النوادر» للأستاذ عبد السلام هارون، و«المنتقى من فرائد الفوائد» للشيخ محمد العثيمين، وكتاب «القلائد من فرائد الفوائد» لمصطفى السباعي وغيرها كثير، فهؤلاء لم يُؤلّفوها في جلسةٍ واحدة؛ بل كانوا يكتبون ما يجول في خواطرهم، وما يُدوّنونه من الفوائد على مرّ

الأيام، فاجتمعت عندهم مادّة قابلةٌ للنشر فنشروها، وانتفع منها بشرٌ كثير.

قال العلَّامة محمد بن صالح العثيمين ﷺ في مقدمة كتابه «فرائد الفوائد»: «كنت أقيّد بعض المسائل الهامة، التي تمر بي ـ حرصًا على حفظها، وعدم نسيانها ـ في: «دفتر»، وسميتها: «فرائد الفوائد». وقد انتقيت منها ما رأيته أكثر فائدة، وأعظم أهمية؛ وسمّيت ذلك: «المنتقى من فرائد الفوائد»». اهـ.

وقال العلَّامة مصطفى السباعي ﷺ، في مقدمة كتابه «القلائد من فرائد الفوائد»: «كان دأب طلاب العلم ـ ولا يزالون كذلك ـ أن يقيدوا ما يجدونه من فوائد متناثرة، خلال مطالعاتهم، في أوراق خاصة، يرجعون إليها عند الحاجة لها، وقد كان مما يوصي به علماؤنا طلابَهم: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتابِ».

ودرجتُ على ذلك منذ طلبي للعلم، فتجمع لي من ذلك قدر كبير ضاع أكثره في سنوات من السفر والسجن والمرض، وقد كنت بما جمعت حفيًّا، وعليه حريصًا». اهـ.

ومن الأمثلةِ كذلك: كتاب «الموافقات» للشاطبي، هذا الكتاب الضخم العجيب، الذي يتكلم عن مسائل دقيقةٍ وصعبةٍ، تتعلّق بأصول الفقه ومقاصد الشريعة، والأدلة الشرعيّة، وأحكام الاجتهاد والتقليد، إنما ألّفه بهذه الطريقة التي ذكرتُها، قال رحمه الله تعالى في المقدمة[1]:

«لَمَّا بَدَا مِنْ مَكْنُونِ السِّرِّ مَا بَدَا، وَوَفَّقَ اللهُ الْكَرِيمُ لِمَا شَاءَ مِنْهُ وَهَدَى، لَمْ أَزَلْ أُقَيِّدُ مِنْ أَوَابِدِهِ، وَأَضُمُّ مِنْ شَوَارِدِهِ..

(١) ص١٤.

ثُمَّ اسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى فِي نَظْمِ تِلْكَ الْفَرَائِدِ، وَجَمْعِ تِلْكَ الْفَوَائِدِ، إِلَى تَرَاجِمَ تَرُدُّهَا إِلَى أُصُولِهَا، وَتَكُونُ عَوْنًا عَلَى تَعَقُّلِهَا وَتَحْصِيلِهَا؛ فَانْضَمَّتْ إِلَى تَرَاجِمِ الْأُصُولِ الْفِقْهِيَّةِ، وَانْتَظَمَتْ فِي أَسْلَاكِهَا السَّنِية الْبَهِيَّةِ؛ فَصَارَ كتابًا». اهـ.

فكتابةُ الخواطر وتدوين الفوائد أمرٌ ضروريّ لطالب العلم، قال المسعودي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولولا تقييدُ العلماء خواطرَهم على الدهر لبطل أوَّل العلم، وضاع آخره؛ إذ كان كلُّ علمٍ من الأخبار يُستخرج، وكلُّ حكمةٍ منها تستنبط، والفقه منها يُستثار، والفصاحةُ منها تستفاد، وأصحابُ القياس عليها يبنون، وأهلُ المقالات بها يحتجون، ومعرفةُ الناس منها تؤخذ، وأمثالُ الحكماء فيها تُوجد، ومكارمُ الأخلاق ومعاليها منها تُقتبس، وآدابُ سياسةِ الملك والحزم منها تُلْتَمس، وكلُّ غريبةٍ منها تُعرف، وكلُّ عجيبةٍ منها تُسْتَطْرف، وهو علمٌ يَسْتمتع بسماعه العالمُ والجاهل، ويَسْتعذبُ مَوقعه الأحمق والعاقل، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصيُّ والعاميُّ، ويميلُ إلى رواياتِه العربيُّ والعجميُّ. اهـ[1].

وأنا أجزم أنّ كلّ طلاب العلم يُدوّنون الفوائد التي يمرّون بها، فمُستقلٌّ ومُستكثر، ولكن قد ينقصهم **أمران**:

الأول: تدوين خواطرهم وما يُفتح عليهم.

الثاني: تنظيم وترتيب هذه الفوائد والخواطر، فتجد الواحدَ منهم عنده مئات الفوائد، ولكنها مُبعثرةً.

فنصيحتي لأحبتي طلاب العلم أنْ يَبْدؤوا من اليوم بالسير على ما

(١) مروج الذهب: ١٩٦.

ذكرتُه آنفًا، وسيرون النشاط يدبّ في أجسادهم، وسيعتادون على التأليف والكتابة، وذلك سهلٌ ـ بعون الله سبحانه ـ غير مكلف.

ومن أعظم ثمرات هذه الطريقة:

١ ـ سرعةُ وسهولةُ اقتباس ما دوّنتَه عند حاجتك إليه، ممَّا يُسهِّلُ عليك الكتابة، ويختصر لك الوقت.

٢ ـ فهم ما قرأته من الكتب فهمًا جيّدًا، واسْتيعابُه واسْتحضاره.

٣ ـ القدرة على الكتابة والتأليف؛ وذلك لكثرة تعليقاتك على الكتب التي تقرؤها، ومع الأيام ستجد أنّ الكتابة والتأليف من أسهل الأشياء.

٤ ـ الثقةُ بالنفس، والاستقلالُ، وعدمُ الجمود ولزومِ التقليد؛ وذلك لأنه سيكتب ما يراه صوابًا وحقًّا، وهو إنما يكتب ذلك في بداية الطلب لنفسه، ولن يعرضه للناس وأهل العلم.

قال العلّامةُ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى: لَا حَظَّ لِلْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ ـ أي: الْمُفَسِّرِينَ ـ مِنَ التَّأْلِيفِ إِلَّا النَّقْلَ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الْغَالِبِ قَدْ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمُ الِاسْتِقْلَالَ فِي الْفَهْمِ؛ لِئَلَّا يَكُونَ مِنَ الِاجْتِهَادِ الَّذِي تَوَاطَؤُوا عَلَى الْقَوْلِ بِإِقْفَالِ بَابِهِ، وَانْقِرَاضِ أَرْبَابِهِ، وَالرِّضَا بِاسْتِبْدَالِ الْجَهْلِ بِهِ، فَإِنَّ غَيْرَ الْمُسْتَقِلِّ بِفَهْمِ الشَّيْءِ لَا يُسَمَّى عَالِمًا بِهِ كَمَا هُوَ بَدِيهِيٌّ، وَعَلَيْهِ إِجْمَاعُ عُلَمَاءِ السَّلَفِ.اهـ[1].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: الْمُقَلِّدُونَ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ لِأَنَّهُمْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ اسْتِعْمَالِ أَشْرَفِ النِّعَمِ الْغَرِيزِيَّةِ وَهُوَ الْعَقْلُ، وَحَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَفْضَلَ

(١) تفسير المنار ٥/ ٨٢.

الْفَضَائِلِ الْكَسْبِيَّةِ وَهُوَ الْعِلْمُ وَالْفَهْمُ. اهـ[(١)].

وغَيْرُ الْمُسْتَقِلِّ بِفَهْمِ الشَّيْءِ لَا يُسَمَّى عَالِمًا بِهِ بِإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ، وما نراه من ضعف كثيرٍ من طلاب العلم إنما سببُه التقليد وعدمُ الاستقْلال ـ المحمود ـ، أو الرّهبةُ من إبداء الرأي والبحثِ والترجيح بنفسه.

قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: المقلد راضٍ أن يُغْبَنَ عقلُه، ولعله مع ذلك يستعظم أنْ يُغْبَنَ مالُه، فيخطئ في الوجهين معًا. اهـ[(٢)].

ولو سألت نفسك ـ أخي طالب العلم ـ هذا السؤال: كم قضيت من عمرك في قراءة الكتب ومطالعتها؟

لربما أجبت: مرّتْ عليّ عشرةُ أعوام أو أكثر!

فهل استطعت خلال هذه الأعوام الطويلة أنْ تصبح طالبَ علمٍ راسخ في فنٍّ من فنون العلم؟

أم الواقع أنك مُثقَّفٌ ثقافةً ضحلة، تأخذ من كلّ فنٍّ أيسره وأسهله، وتقرأ كتابًا فإذا اسْتصعبته تركته وهجرته؟

وهل أصبحت عندك ملكةٌ في إعداد كلمةٍ أو مقالٍ أو خطبةٍ؟

أم الواقع يُنبئ أنه لو طُلب منك إعدادَ خطبةٍ تلكَّأت، أو إعداد كلمةٍ ـ دون إلقائها ـ، لاسْتصعب الأمر، ولجلست مُدَّةً في إعدادها، فكيف لك أن تؤلف كتابًا نافعًا، أو تكون خطيبًا مِصْقعًا؟

إنّه ينبغي عليك أن تجدّ وتجتهد، وترسم خطةً واضحة في طلب العلم، حتى تخرج بنتيجةٍ مرضيةٍ، وعلم مؤَصَّلٍ.

---

(١) تفسير المنار ٧/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

(٢) رسائل ابن حزم ١/ ٤٠٠.

٢ «المنهجيّةُ الصحيحةُ في العنايةِ بالكتابة والتأليف»:

يجد كثيرٌ من الخطباء، والمؤلفين، والباحثين في الدراسات العليا وغيرها في بداية أمرهم، وأوائل شأنهم، صعوبة بالغة في الإعداد، فيُصابون بالإعياء والإجهاد؛ وذلك لأنّ الواحد منهم ظنَّ أن الأسلوب الناجع في البداية، أنْ يبدأ بالتسلسل الموضوعيّ بعناصرِه الدقيقة، فلا يتعدى عنصرًا حتى يتقن الذي قبله، فيمكث في ذلك مدَّةً طويلة، ثم تأتيه الحيرة في الترتيب والتنسيق، وبأيِّ شيء يبدأ... وهكذا فهو في حَيص بيص[(١)]، ويعيش في حيرةٍ وتذبذب، ويستولي عليه الخوف والقلق.

فمن المهم أنْ ندرك أنّ التأليف فنٌّ ومهارةٌ، يحتاج كغيره من المهارات والفنون إلى ممارسةٍ، وتنميةٍ، ودربة، وجدٍّ، وصبر، ومصابرة، فمع الليالي والأيام يزداد المؤلف والباحث خبرةً وإتقانًا.

ومن لم يقم بتنمية مهارةِ التأليف ضعفت، وربما ماتت، وعسر عليه إتقانُها بعد ذلك، ولو كان كثير الحفظ والمطالعة، وحادّ الفهم والذكاء.

ومرحلةُ الشباب هي أفضل مرحلةٍ لبداية التأليف؛ لصفاءِ الذهن، ونشاط البدن، وسهولة تقبّل النقد، والسعيِ في التغيير والتجديد، مع ضرورة التسلّح بالعلم، وأهميّة الاستعانة ـ بعد الله تعالى ـ بالاستشارة، ولزوم التحلّي بالتأنّي، وعدمِ الاستعجال بالنشر، إلا بعد عرضِه على أكثر من واحد من طلبة العلم، الذين لهم باعٌ في ذلك، وعندهم تفاعلٌ

---

(١) في القاموس المحيط: البَيْصُ: الشدَّةُ والضيقُ. ووَقَعَ في حَيْصَ بَيْصَ؛ أي: اخْتِلاطٍ لا مَحِيصَ عنه.

ونصح، فإذا عرض عليهم كتابًا يحتاج إلى إبداء رأي، أوْلوه اهتمامًا، وبذلوا غاية نصحهم.

وإنّ الكتابة من أعظم أسباب تنشيط الهمّة، ولذا تجد من اتجه للتأليف من أحرص الناس على وقته.

وأعرف رجلًا ضعيف الهمّة في طلب العلم، ويُعاني من عدمِ تنظيم الوقت، فنُصِحَ بأنْ يُؤلّف ويُكثر من البحث، فاسْتجاب لذلك، وأخبر بعد مُدّةٍ بأنه رأى تغيّرًا كبيرًا عن ذي قبل، وفتح الله عليه في العلم والتأليف والبحث.

وهل يُطيق طالبُ علمٍ حياةً بدون إدمانِ بحث، أو تعليمٍ ونشرِ ما عَلِمَه، أو تأليف؟

وهل يرضى بأنْ يُوصَف بأنه طالبُ علمٍ بدون واحدةٍ منها؟

والتأليف هو فتح من الله تعالى وتوفيق، ثم هو مهارةٌ تحتاج إلى دربة وعزيمة وجرأة، ولا تجد طالب علم إلا وهو يفكر في التأليف والكتابة والبحث، وجلهم قد بدأ وكتب، لكن فتر وتراخى لسببٍ مِن الأسباب.

«وليس التأليف إلا مثل التلقيح للثمار، وطرح البذر في الأرض الطيبة، ثم يَهَب الله من البركة ما يشاء وهو الفتاح العليم»[(١)].

واعلم أنّ كل من صنف وكتب فله طريقته التي يسلكها، ومنهجه الذي يسير عليه، وإليك هذه القواعد المهمة، والنصائح النافعة، التي ينبغي لك ـ يا طالب العلم ـ إذا أردت التصنيف أو البحث أن تعتني بها، وتأخذ بها:

(١) إيثار الحق على الخلق، لمحمد بن إبراهيم القاسمي (ت سنة: ٨٤٠هـ): ٧٠.

١ ـ الاستعانة بالله وحده، والافتقار إليه سبحانه، متبرئًا من حولك وقوتك، شاكيًا إليه ضعف حالك، «وإذا لم يأت العبدَ من الله سداده، ولا كان من بحره استمداده، لم يغن عنه اجتهاده»[(١)].

وصدق القائل:

إِذا لم يكن عون من اللَّه للفتى فَأول مَا يجني عَلَيْهِ اجْتِهَاده

٢ ـ صنِّف لسدّ حاجتك، ونفع نفسك، ولا تصنّف كتابًا لمجرد نفع الناس فقط.

واجعل وقتَك مصروفًا في القراءة والبحث والنَّظر في الأدلة وأقوال العلماء وأهل الخبرة والتجربة، ثم دوّن ذلك، واكتب ما يُمليه خاطرك، ثم بعد أن يكتمل أو يقارب الاكتمال، وترى أنّ غيرك سينتفع به كما انتفعتَ: فهيّئه للنشر.

فإن هذه النية ـ أعني: التصنيف لأجل إفادة الناس فقط ـ: تُوحي بأنك قد كملت، أو قربت من الكمال.

ومن كانت هذه نيّته فإنه سيجعل همّه التأليف، والإكثار منه، والانصراف عن القراءة وجرد الكتب وضبط العلم، وسيُصاب بهوس التأليف، واللهث وراء أخبار المؤلفين، والمواضيع التي يرغبُها الناس؛ لِيَكون إقبالهم على شراء الكتاب أكثر، وربما أدى هذا ـ كما حصل في هذا الزمان ـ إلى كثرة الحشو، وسرقة كلام الآخرين من مؤلفاتهم، وبهذا يُصبح هدف المؤلف الجمع والتكاثر، وقد ذمّ الله تعالى من هذا شأنُه

(١) قانون التأويل، للقاضي محمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي المالكي (المتوفى ٥٤٣هـ)، ص٤٥٥.

بقوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: ١]، ويطلبون الدنيا بالدين، وهؤلاء من أخسّ الناس عند الله ربّ العالمين، قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأَنْ أطلب الدنيا بطبل ومزمار أحبُّ إليّ من أطلبها بالعبادة.

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأن يطلب الرجل الدنيا بأقبح ما تطلب به، أحسن من أن يطلب بأحسن ما تطلب به الآخرة.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: مِنْ شرط العالم أن لا تخطر محبة الدنيا على بالِه.

وقيل له: مَن سفلة الناس؟ قال: الذين يتعيّشون بدينهم[1].

ومن المعلوم أنّ العلم عبادة، فلا يجوز أن يُطلب به الدنيا.

والعنايةُ بتصحيح النية من أعظم أسباب القبول والتوفيق والرفعة في الدنيا والآخرة، ولو رُفع أحدٌ فاسدُ النيةِ في الدنيا عند عوامّ الناس، فلن يُرفع عند خاصتهم من أهل العلم والصلاح، ولو رفع ـ جدلًا ـ فلن يرفع عند الله ربِّ العالمين، وأي رفعةٍ مؤقتة يعقبها هوانٌ: لخاسر طالبها، وضالّ مَن سعى مِن أجلها.

٣ ـ فكِّرْ فيما تُريد طرحه أو كتابته، ثم اكتب ما يُمليه عليك خاطرك، دون العناية بالألفاظ والبلاغة والمقدمة، ودوِّن ما عَلِقَ في خاطرك مباشرةً دون تأجيل؛ لأنك لو أجلّت لضاعت الأفكار والخواطر.

٤ ـ لا تُحاول جلب الأفكار والعناوين؛ بل اكتب ما يخطر في بالك.

٥ ـ اكتب ما يجول في البال مباشرة، دون حرصٍ على تدقيق ما تكتبه أو تُمْليه، ودون الرجوع إلى المصادر؛ بل إذا تذكرت أثناء كتابتك

(١) حياة السلف بين القول والعمل ص٢٣٠.

كلامًا لأحد العلماء فأشِر إليه في الحاشية، وإذا انتهيت بعد ذلك فارجع إلى المصدر وانْقله.

٦ ـ ثم ابدأ بجمع المادة العلمية والكتب التي تتحدث عن موضوعه، وانْظر في الفهرس باحثًا عن الموضوع الذي تُريده، فاقرأ فيه، ثم ابحث في المكتبة الشاملة، وفي الشبكة العنكبوتية كذلك.

فما وجدته متعلقًا ببحثك فخذه وضعه في ملف الوورد.

فالمهم في هذه المرحلة: أنْ تجمع وتكتب، بدون ترتيب وتحقيق، ودون تعليق وتدقيق.

مع الرجوع إلى ما أشرت إليه أثناء الكتابة ممّا خطر لك من أقوال العلماء ونحوهم.

٧ ـ ثم إذا انتهيت من كتابة ما في الخاطر، وانتهيت من جمع المادة العلمية من الكتب ونحوها، فارجعْ إلى ما كتبته، ثم ابدأ بترتيب العبارات، وانتقاء الألفاظ، وتصحيح اللغة والإملاء.

فإذا بك قد جمعتَ مادةً علميةً كبيرةً وقيّمةً، فحينها قم بطباعةِ بحثك، ثم ابدأ بقراءته بتمعُّنٍ وتأنٍّ.

فاحذف ما لا يُناسب، وعَلِّق على بعض الكلام، ورتِّب عناصره.

وهكذا مع مرور الأيام تَجِد أنك قد أنجزت شيئًا عظيمًا، وكتبتَ ما لا يخطر على بالك، ولن تشعر بالملل والسآمة؛ بل ستشعر بثقة في نفسك، وسهولةٍ في بحثك.

فمن المهم أنْ تبادر إلى كتابة ما يخطر في بالك أولًا، ثم أعد قراءة ما كتبت بعد ذلك، وصحح الأخطاء، وعدّل بعض العبارات، واذكر الشواهد على ما كتبتَ.

٨ ـ حدِّد الوقت والساعة منذ البداية وحتى النهاية، كي ترى الفارق بين أوائل كتاباتك وأواخرها، فتشعر بأنك كلما مرت عليك الأيام يكون زمن التحضير أقلّ، فتزداد نشاطًا وحماسًا وثقةً.

٩ ـ الكتابة الأولى تكون عاطفيةً وبإسهاب، والمراجعةُ تكون بالعاطفة مع العقل والنظر والتدقيق.

١٠ ـ لا تَحمل همًّا للمُؤَلَّف والمقال والخطبة؛ بل اكتب كتابةً بدون تكلّف واهتمام كبير.

١١ ـ ينبغي أنْ تُدوّن ما يخطر في بالك في أيّ وقت، ولا تقل: إذا ذهبتُ إلى البيت سأدّونها، فسرعان ما تذهب عنك الخواطر المهمة، والقريحة الجيّدة.

وكتابةُ ما في الخاطر مُباشرةً من أهم الأمور، فكثيرًا ما تلوح في الخاطر عبارات جميلة، وخواطر مُهمّة، فإن لم تدوّنْ ذهبت، ولو بقيت صعب تدوين الصيغة المناسبة لها، فمن حين ما تأتي الخاطرة تأتي الصيغة المناسبة والأسلوب الجميل معها، ولذلك فمن أشد ما يخسره من يُفرط في تدوين الخواطر ضياعُ الصيغة المناسبة والأسلوب الرائع لها.

قال العلّامةُ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عند تفسيره لإحدى الآيات:

وَقَدْ كُنْتُ كَتَبْتُ فِي مُذَكِّرَاتِي عَنِ الدَّرْسِ عِنْدَمَا تَقَدَّمَ «أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ نُكْتَةٍ لِهَذَا التَّعْبِيرِ وَهِيَ». . وَتَرَكْتُ بَيَاضًا لِأَكْتُبَ فِيهِ مَا ظَهَرَ لِي مِنَ النُّكْتَةِ ثُمَّ نَسِيتُهُ إِلَى الْآنَ! . اهـ[١].

(١) تفسير المنار ٥/ ٣٤٤.

وقال أبو الفتح عثمان بن جنيّ: من طريف حديث هذا الخاطِر أنني كنت منذ زمان طويلِ رأيت رأيًا جمعت فيه بين معنى آيةٍ ومعنى قول الشاعر:

وكنت أمشي على رِجْلين معتدلًا   فصرتُ أمشي على أخرى من الشجرِ

ولم أُثْبِتْ حينئذٍ شرحَ حالِ الجمعِ بينهما؛ ثقةً بحضوره متى استحضرتُه، ثم إني الآن ـ وقد مضى له سنون ـ أُعَان الخاطرَ وأفانِيه وأتودّده على أن يسمح لي بما كان أَرانِيه من الجمع بين معنى الآية والبيت، وهو معتاصٌ متآبٌّ، وضَنينٌ به غيرُ مُعْطٍ.اهـ[1].

وقد كان الأئمةُ والعلماء والْمُفكرون، يُدوّنون أفكارهم، ويُؤلّفون كتبهم، في أيّ مكانٍ كانوا فيه.

والكسل أساس السقم وضيق الصدر والتأخر للوراء، قال ابن القيِّم رحمه الله تعالى: «ولهذا تجد الكسالى أكثر الناس همًّا وغمًّا وحزنًا، ليس لهم فرحٌ ولا سرورٌ، بخلاف أرباب النشاط والجدِّ في العمل أيِّ عملٍ كان، فإن كان النشاطُ في عملٍ هُمْ عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته: كان الْتذاذُهم بحبِّه ونشاطُهم فيه أقوى».اهـ[2].

فلا تردّ خاطرةً سنحت لك في أي وقت، ولو لم تجد قلمًا فسجل الخاطرة بجهاز التسجيل في الجوال، ثم اكتبها بعد ذلك، والخواطر هي نواة كتب كثير من العلماء.

قال أحد طلاب العلم: إني أحمد الله تعالى أنه وفقني أنْ أكتب

---

(١) الخصائص، الناشر: عالم الكتب، تحقيق: محمد علي النجار ١/٢٠٧.

(٢) روضة المحبين: ١٦٨.

وأُصنف في مواضيع كانت تهمني قبل أعوام، وربما لو لم أصنفها وأهتم بتقييد خواطري حينها لما خطر ببالي الآن أنْ أكتب مثلها؛ لأمور كثيرة منها: انصراف الهمة إلى علوم أخرى.

وإذا راجعت بعض كتبي، ثم نظرت في الفوائد والاستنباطات التي دوّنتها: تملكني العجب مما دونت، وحينما أقرأ بعضها كأنّي لأول مرة أقرؤها وأعرفها، ولو لم أدونها في حينها: لَمَا جاءتني هذه الخواطر والفوائد التي دونتها.

وقد جعلت يومًا أقلّب كتبي وجعلتُ أقول: كيف استطعت أن أكتبها؟

ولو أنها كانت لغيري لكبر في عيني، وجلّ قدره في نظري.

ولو أردت أن أصنف أحدها الآن لَربما لم أستطع.

ولو كنت حينها قد اقتصرت على البحث والنظر والترجيح لَمَا قرّت عيني بهذه المؤلفات التي أرجو ربي أن ينفع بها.اهـ.

فمن أهم الأمور على طالب العلم: أن يُدون خواطره التي تلوح له عندما يقرأ كتابًا، أو يرى موقفًا، أو يسمع كلامًا، أو يتأمل ويُفكر في شيء.

فإنَّ غالبها لا تأتي إلا مرة واحدة، فحينما تُفوتها لا ترجع ثانية، فكم سيربح من يدون خواطره وما تُثيره قريحته؟

وكم سيخسر من لم يفعل ذلك آلاف الدرر التي قد تكون كتبًا وبحوثًا وتحقيقاتٍ يستفيد وتستفيد الأمة منها؟

وكثير من طلاب العلم تخطر في أذهانهم خواطر عظيمة ومهمة خلال القراءة والبحث والتأمل، ولكن المشكلة أنهم لم يدوّنوا خواطرهم

وأبحاثهم، وليتهم فعلوا، فالهمة حينها تكون كبيرة وجاهزة للتصنيف والتدوين، ولن تتكرر الهمة مرة ثانية في الغالب.

ومن بحث في مسألة أو موضوع بحثًا موسّعًا، ووصل إلى قناعات وترجيحات: فقد قضى نهمته، ولو مضى على بحثه بضعةُ أشهر فلن يستطيع أن يبحث في نفس الموضوع أو المسألة؛ فإن همة الإنسان تضعف كثيرًا عن إعادة بحثٍ ما قد بحثه، فلو لم يدوّن نتائج بحثه لضاع أثر ذلك عليه وعلى غيرِه.

فينبغي لكلِّ من امتلك موهبةَ الكتابة أن يستثمرها في بداية عمرِه قبل أن يصل إلى الفتور، أو الانشغال بأمور المعيشة، أو بالعلوم الشرعية الأخرى، فلا يجد نفسه مائلةً للتصنيف كما كان في أوائل عمره.

١٢ ـ أغلق الجوال أثناء التأليف، فإذا قُطعتْ حبال الأفكار فمن الصعب إرجاعها.

١٣ ـ وإذا كان الخطيبُ أو الْمُلقي مُبتدئًا فلا بأس بالاستفادة من غيره، خاصة المتقنين والمجيدين، فيأخذ من خُطبهم، ثم يضعه في ملف وورد، وما يراه لا يُناسب الْمُستمعين فَلْيحذفه، ولْيُضف إليه ما يراه مناسبًا ونافعًا، ومع مرور الأيام يزيد من كلامه وعباراته، حتى يأتي اليوم الذي يُعد فيه إعدادًا كاملًا من عنده بإذن الله(١).

١٤ ـ حينما تفيض مشاعرك في داخلك أثناء تأملك وتدبّرك، أو حصول موقف: فلا تردّها ولا تكتمها؛ بل بادر في كتابتها؛ لأنّ مشاعرك حينها ليس فيها تكلُّفٌ ولا رياء ولا تصنّع؛ بل فيها صدق وحرارة، تصل إلى قلوب الآخرين؛ لأنّ ما كان من القلب يصل إلى القلب في الغالب،

(١) آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه، للمؤلف: ١٤١ ـ ١٤٧.

إلا إذا كانت مما لا ينبغي لأحد الاطلاع عليها، فاكتبها كذلك ولكن لا تنشرها.

فالمشاعر والخواطر كالضرع، إذا حلبته فاض ودرّ، وإذا تركته جفّ وذبل وقرّ.

ولا تقل: هذه المشاعر لا يليق بها أن تظهر، وكن على يقين أنّ مَن كتم مشاعره واعتنى بالزبدة، أو بالسجع، أو بقوة الأسلوب: لم تكن لكتاباته التأثير البالغ، وحرم القارئ من أن يغوص في بحار المشاعر التي غاص بها، وأنس بها أثناء ورودها، فلا غرو أن كانت كتبه ومصنفاته فيها نوعٌ من الجفاف والبرود الذي لا يصبر عليه إلا طالب العلم الراغب في البحث أو الرسوخ في العلم، فالعاطفة والمشاعر هي من أعظم الأركان في التصنيف والحديث.

«وَقَدْ تَأَمَّلْتُ فِي أَعْظَمِ أَسرَارِ النَّاجِحِينَ فِي الخَطَابَةِ وَالتأليف والتَّأثِيرِ: فوجدتُ السرَّ والسببَ في ذلك قُوَّةَ العَاطِفَةِ التي عندهم، وقدرتهم على إظهار مشاعرهم بالتفصيل لا بالإجمال.

فَإنَّ قُوَّةَ العَاطِفَة: تَدْفَعُ ذا البيانِ إلى تبيانها، وتَدْفَعُ ذا الحكمة إلى إبدائها، فتجذبُ القلوب بسحرِها، وَتَأسُرُ العقولَ بجمالها وبراعتِها، وضعيفُ العاطفة يموت كثيرٌ من علمه بموت عاطفتِه، وَيَتَلَاشَى تأثيرُه على الناس بموت مشاعِره.

فَينبغي عَلَى الكاتب أنْ يمتلئ حماسة فيما يدعو إليه، واعتقادًا بصدقه؛ لأن ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب، فلا بد أن تكون حماسة الكاتب أقوى من حماسة القارئين له؛ ليفيض عليهم، ويروي غلَّتَهُمْ، وإلا أحسوا بفتور نفسه، فضاع أثر قوله.

وَلا بُدَّ مِنْ طُولِ الدُّرْبَةِ فِي ذَلِكَ، عَبْر كِتَابَةِ الخَوَاطِرِ وَالمَشَاعِرِ، وَالتَّحَدُّثِ بِهَا لِوَحْدِكَ، ثُمَّ بالإِفْصَاحِ بِهَا لِمُحِبٍّ.

وَالمَشَاعِرُ كُلَّمَا حُبِسَتْ وَأُسِرَتْ جَفَّتْ وَنَضَبَتْ، وَكُلَّمَا كَانَتْ حُرَّةً ـ بِشَرْطِ أنْ تَكُونَ وفْقَ الضَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ ـ تَفَجَّرَتْ وَسَالَتْ، فَأسْقَت الأورَاقَ كِتَابَةً وَتَصْنِيفًا، وَالمَنَابِرَ خَطَابَةً وَبيَانًا، وَالنَّاسَ مَحَبَةً وَحَنَانًا.

فَأطْلِقْ ـ أخِي طالب العلم ـ لِمَشَاعِرِكَ وَعَوَاطِفِكَ العَنَانَ؛ لِتَدِبَّ فِيكَ وَفِي غَيْرِكَ الحَيَاةَ وَالإبْدَاعَ وَالنَّهْضَةَ وَالنُّمُوَّ وَالرَّحْمَةَ»[(١)].

وانظر إلى المشاعر الرائعة النافعة في كتب ابن الجوزي وابن حزم والذهبي وابن تيمية وابن القيِّم وابن رجب وغيرهم رحمهم الله، كيف جعلت لكلامهم حلاوة وجمالًا، وفائدة وكمالًا.

١٥ ـ لا تتكلف في صياغةٍ، ولا استدلالٍ، ولا إحاطةٍ في الموضوع الذي أكتبه.

١٦ ـ ارسم خطةً لكلِّ كتاب تقرؤه، أو بحثِ مسألة، وحدِّد هدفك من ذلك، والقاعدة تقول: التخطيط الدقيق، والتركيز على الهدف، هو أسرع الطرق للوصول إليه، وما أكثر الذين يبذلون جهودًا عظيمةً وكثيرة، ولكنهم لم يحددوا الهدف، ولم يسعوا له، ولم يصبروا عليه، فهم كما قال الشاعر:

ومشتتِ العزماتِ ينفقُ عمرهُ   حَيْرَانَ لا ظَفَرٌ وَلا إِخْفَاقُ

وهؤلاء تأخذهم الحماسة عند الشروع في قراءة كتاب، أو كتابة بحث، لكن دون تخطيط دقيق، ولا يلبث إلا قليلًا حتى يتوقف في بداية

(١) صِنَاعَةُ خَطِيبٍ مَاهِرٍ، للمؤلف، مع شيء من التصرف: ٣٠.

الطريق أو في منتصفه، ثم يلوم نفسه، ويحكم عليها بأنه إنسان فاشل!

واعلم أنّ الشجاعة والحزم مع النفس في رسم الهدف الدقيق، والمضي قدمًا في تحقيقه: إنقاذٌ لك من القلقِ والاضطرابِ، وضمان ـ بمشيئة الله تعالى ـ بنتائج مبهرة محقَّقَة.

١٧ ـ اصبر على مرّ البحث والقراءة والكتابة، وما أصعب ذلك وأشقه على النفس، ولولا ما يقذفه الله في قلب المؤلف من العزيمة والهمة لَمَا أطاق مكابدة التصنيف والبحث والقراءة في الكتب المطولة، والصبر على مقاسات أتعابِها.

والأولى أن تكتب على مهل، بعد أن ترسم خطة لِلكتاب الذي تريد تصنيفه، ثم لا تزال تكتب وتبحث يومًا بعد يوم، دون الانقطاع للتصنيف، واستمر على ذلك عدة أشهر أو أعوام.

١٨ ـ اصرف وقتك للقراءة والبحث وفق خطةٍ واضحةٍ.

وإذا كنت تقرأ: فعلق، أو لَخِّص، أو حقق، وإذا مرَّت بك فائدة وأنت تقرأ فضعها في ملف (وورد)، ثم اجمع النظير إلى نظيره، ومع مرور الأيام ستجتمع البحوث والمؤلفات والكتب، وتنمو وتكبر وتتوسع بإذن الله تعالى.

ثم تفرغ زمنًا لإتمام البحث، والتفرغ يتفاوت، فبعضها يستغرق أيامًا، وبعضها يستغرق أشهرًا، إلا في تهذيب أو تقريب الكتب المطوّلة، فتحتاج إلى زمن أطول.

١٩ ـ عندما تقرأ في كتب أهل العلم فانقل منها إلى كلّ كتاب لك ما يناسبه، وبعض الكتب أو البحوث التي تشرع في تصنيفها وبحثها قد تمكث عندك لسنوات، وخلال هذه السنوات ستقرأ كثيرًا من الكتب

المتنوعة، وستقف على بحوث ومقالات مختلفة، وستجد فيها كلامًا يعضد كلامًا لك في ذلك الكتاب، وآيةً أو حديثًا يؤيّد كلامك في الكتاب الآخر، وأثرًا عن الصحابة والسلف الصالح يصحح ما قررتَه فتتراجع عما كتبت.

فاجعل منهجك: (أبني كتبي التي أؤلّفها من كتبي التي أقرؤها).

٢٠ ـ انتهز المواقف التي فيها كدَرٌ عليك، واستثمر أخطاء الناس وسوء تصرفاتهم، سواء كانت عليك أو على غيرك، ولا تجعل هذه المواقف والأخطاء تمرّ دون أخذ العبرة منها؛ لتكون موضوع مقال أو خطبة أو كتاب.

وكثير من المؤلفات كان سببها تطاول مبتدع على الشريعة، أو سوء تصرف ممن ينتسب للإسلام والسُّنَّة، فكتب بعض العلماء في ذلك كتبًا انتفع بها الناس إلى يومنا هذا، وكثير من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كانت من هذا الباب.

فلا تظنّ أنّ المصائب شرٌّ محض؛ بل فيها خيرٌ عظيم لمن وفقه الله لأخذ العبرة منها، واسْتَلْهم الدروس منها، فدوّنها أو تكلّم عنها.

فهناك من ألَّف كتابًا عن الصداقة بسبب تصرّفٍ سيئٍ من صديقه.

وهناك من ألَّف كتابًا في العقيدة عمّ نفعُه بسبب كلامٍ من مبتدع ضال.

وهناك من ألَّف كتابًا في الفقه بسبب أخطاء شاعت بين الناس في بعض الأحكام الشرعيّة.

وهناك من ألَّف كتابًا عن الحياة الزوجية بسبب رجل اشتكى له مشكلةً مع زوجته.

والأمثلة في ذلك كثيرة جدًّا.

٢١ ـ لا ترجع إلى كتبٍ معاصرةٍ تكلمَّتْ عمَّا كتبتَ فيه في بداية البحث أو التأليف؛ لأنك لو رجعت إليها فقد يترتب على ذلك **ما يلي**:

أ ـ فتور همّتك، ولقلت: لِمَاذا أكتب وأبحث وقد كُتب في هذا الموضوع؟

ولو لم يكن مقصدك كمقصده، وأسلوبك كأسلوبه.

ب ـ التأثر والميول إلى بعض ما خلص إليه، وبأسلوبه وطريقته، ومن المعلوم أنّ لكل كاتبٍ أسلوبَه الخاصَّ به.

ت ـ كثرة النقل عنه، والعزوف عمَّا عندك من المصادر في الكتب والمراجع المعتمدة.



٣ «فوائد التصنيف»:

للتأليف واختصار الكتب فوائد جليلة، منها:

أولًا: أنه من أعظم أسباب رسوخ المعلومات وثباتها، وزيادة اسْتيعابِها، فكم من مسألة لم تفهمها، أو فهمتها خطأً، وحينما لخصتَ الكتاب، أو بحثتَ المسألة، أو صنفت: انجلت لك ووضحت.

ثانيًا: أنه يزيد في الهمة والنشاط؛ لأنّ التأليف يتطلب حركةَ الذهن، وكثرة التأملّ والبحث والنظر.

ورؤية الكتاب مطبوعًا، وتواردُ أنباء استفادةِ القراء منه: يُفِيض على النفس السرور والفرح، الذي يؤدي إلى زيادة الهمّة والنشاط.

ثالثًا: أنه يُساعد على تنمية وصقلِ موهبة الكتابة والتعبير والتحرير.

رابعًا: أنه يُعين المؤلف على جلب الخواطر واستغلالِ المواقف، حتى لا يكاد يمر بك موقفٌ إلا استثمرتَه وكتبتَ عنه، واستلهمت منه العبر والدروس.

خامسًا: نشر العلم الذي يعدّه المسلم ذخرًا له بعد مماته، ولا ينقطع عمله بموته.

فكم من داعٍ للمؤلف في ظهر الغيب؟

وكم من كتابٍ غيّر حياة حيارى، وأعاد بناء أرواحهم؟

وكم أصلح أديان منحرفين، ورفع من همةِ محبطين وزاد من نشاطهم؟

وكم تسبب في إعادةِ ملحد إلى حضن الإسلام؟

وكم أصلح بين زوجين؟

وكم أثر على طلاب علم فبدؤوا بالتأليف بعد أنْ كانوا لا يفكرون في ذلك؟

وكم حفّز مسلمًا لحفظ القرآن، أو طلب العلم، أو تصحيح مساره؟

سادسًا: أنه سببٌ في كسب صداقاتٍ وعلاقاتٍ نافعةٍ مع بعض العلماء وطلاب العلم والدعاة إلى الله وغيرهم، واستفاد من آرائهم، وملحوظاتهم، ونصحائهم، وتجاربهم، وأفاد غيره كذلك.

فكم من طالب علم مغمورٍ ظهر وعُرف بعد تأليفه ولو لكتاب واحد، فازداد همةً بعد ذلك، واستفاد من توجيهات وملحوظات العلماء وطلاب العلم وغيرهم.

سابعًا: أنّ التأليف سبب كبير لضبط وفهم واستيعاب مسائل العلم الدقيقة والجليلة، وزيادة همةِ طالب العلم، ومضاعفة تعلّقه بالعلم، واختصار الوقت والجهد عليه، وارتقائه إلى مقام الرسوخ في العلم إذا جدّ واجتهد واتقى ربه.

ولا شكّ أنّ طالب العلم الذي لم يُرزق قوةً في الحفظ، والذكاء، والهمة، لو لم يختصر الكتب ولم يصنّف: لكان ضبطه وفهمه واستيعابه للعلم ضعيفًا، ولكانت همّته وتعلّقه بالعلم أقل، ولتحسَّر على طول الزمن في طلب العلم دون فائدة كبيرة، وضبط ورسوخ، كما نسمع ذلك من كثير من طلاب العلم.

وطالب العلم لا يعلم متى يفجأه الموت، أو تخونه أركانه وذاكرته وعقله، فلذلك لا ينبغي أنْ يُؤجّل التأليف إلى حين تقدم عمره إذا كان أهلًا لذلك، فكم من تصنيف في أول العمر أنفع وأجلّ من تصانيف

كثيرة جاءت بعد تقدُّم العمر، وكثرة العلم، ورجاحة العقل، وطول الخبرة، فلا تدري أين تحل البركة.

فقد تكون ـ **يا طالب العلم** ـ في أيام شبابك أعظمَ إخلاصًا، وأشدّ إقبالًا، وأعلى همةً مِن أيام شيخوختك، ومن اليقين أنّ أيام الشباب والكهولة أكثرُ فراغًا وأقلُّ شغلًا وارتباطًا، فاستغل فراغك وقلة انشغالك، فقد يأتيك زمن تتمنى الفراغ لتؤلف وتصنف، وإن وجدت فراغًا فقد تُشغلك ظُروفُ عمَلِك وهموم أُمَّتك عن التصنيف.

قال الوزير ابن هبيرة رحمه الله تعالى: يحصل العلم **بثلاثة أشياء**:

أحدها: العمل به، فإن من كلف نفسه التكلم بالعربية، دعاه ذلك إلى حفظ النحو، ومن سأل عن المشكلات ليعمل فيها بمقتضى الشرع تعلم.

والثاني: التعليم، فإنه إذا علم الناس كان أدعى إلى تعليمه.

الثالث: التصنيف، فإنه يخرجه إلى البحث، ولا يتمكن من التصنيف من لم يدرك غور ذلك العلم الذي صنَّف فيه.اهـ[(١)].

ومن أعظم الفوائد من التصنيف: ما ذكره الخطيب البغدادي رحمه الله (المتوفى: ٤٦٣هـ) بقوله: «قَلَّ مَا يَتَمَهَّرُ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ، وَيَقِفُ عَلَى غَوَامِضِهِ، وَيَسْتَثِيرُ الْخَفِيَّ مِنْ فَوَائِدِهِ، إِلَّا مَنْ جَمَعَ مُتَفَرِّقَهُ، وَأَلَّفَ مُتَشَتِّتَهُ، وَضَمَّ بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ، وَاشْتَغَلَ بِتَصْنِيفِ أَبْوَابِهِ، وَتَرْتِيبِ أَصْنَافِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ:

١ ـ مِمَّا يُقَوِّي النَّفْسَ.

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٤١)، وقد نقلها عن ابن الجوزي في المقتبس.

٢ ـ وَيُثَبِّتُ الْحِفْظَ.

٣ ـ وَيُذَكِّي الْقَلْبَ.

٤ ـ وَيَشْحَذُ الطَّبْعَ.

٥ ـ وَيَبْسُطُ اللِّسَانَ.

٦ ـ وَيُجِيدُ الْبَيَانَ.

٧ ـ وَيَكْشِفُ الْمُشْتَبِهَ.

٨ ـ وَيُوَضِّحُ الْمُلْتَبِسَ.

٩ ـ وَيُكْسِبُ أَيْضًا جَمِيلَ الذِّكْرِ.

١٠ ـ وَتَخْلِيدَهُ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ». اهـ[(١)].

وصدق الشَّاعرُ:

يَمُوتُ قَوْمٌ فَيُحْيِي الْعِلْمُ ذِكْرَهُمُ ... وَالْجَهْلُ يُلْحِقُ أحياءً بِأَمْوَاتِ

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ رَحِمَهُ اللهُ: «عِلْمُ الْإِنْسَانِ وَلَدُهُ الْمُخَلَّدُ».

وصدق القائل:

يَقُولُونَ: ذِكْرُ الْمَرْءِ يَبْقَى بِنَسْلِهِ ... وَلَيْسَ لَهُ ذِكْرٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ نَسْلُ

فَقُلْتُ لَهُمْ: نَسْلِي بَدَائِعُ حِكْمَتِي ... فَمَنْ سَرَّهُ نَسْلٌ فَإِنَّا بِذَا نَسْلُو

فهنيئًا لمن ألّف كتبًا نافعةً تُكسبه هذه الخصال العظيمة، والمنافع الكثيرة، وهنيئًا لمن كان عونًا لمؤلفّيها، بأيّ شكلٍ من أشكال الدعم والعون.

ولا تلتفت ـ **يا طالب العلم** ـ إلى المخذِّلين، الذين يقللون من

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي ٢/ ٢٨٠.

أهمية مؤلفاتك، ويحتقرونها، وهذا الصنف موجود في كلّ مكان وزمان، وقد قيل للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنك تتعبنا في تأليف الكتب وتصنيفها، والناس لا يلتفتون إليك، ولا إلى تصنيفك!

فقال لي: إنَّ هذا هو الحق، والحق لا يضيع!(١).



(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر ٥١/ ٣٦٥.

٤ «التصنيف في وقت مبكر»:

ليس عيبًا أن يبدأ طالب العلم في التصنيف في وقت مبكر إذا كان متمكنًا من العلم الذي يصنف فيه.

فقد ألف العلامة ابن الجزري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه «منجد المقرئين» وعمره اثنان وعشرون عامًا.

وألَّف الحافظ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألفية البلاغة المسماة «عقود الجمان في علم المعاني والبيان» وعمره ثلاثةٌ وعشرون عامًا، حيث قال:

من عام ثنتين وسبعين الذي ... بعد ثمانمائة للهجرة

وولادته في عام: ٨٤٩

وألّف العلامة منصور البهوتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه: «حاشية منتهى الإرادات» وعمره ستّةٌ وثلاثون عامًا.

وألّف العلامة عبد الرحمٰن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفسيره وعمره سبعةٌ وثلاثون عامًا.

وألّف أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه «إحياء علوم الدين» قبل أنْ يصل عمرُه الثامنة والثلاثين عامًا[١].

وما يدري الإنسان ما يعرض له بعد ذلك، وربما لو أنّ هؤلاء وغيرهم لم يصنفوا في شبابهم لَمَا تَمَكَّنوا من تصنيف هذه المصنفات بعد ذلك، إما لكثرة الأشغال، وإما لفتور الهمة في التصنيف، وإما لانصرافهم إلى تصنيف كتب أخرى غيرها، ولو صنَّفوا هذه المصنفات فقد يكون أسلوبهم وطرحهم أضعف، وصدق القائل:

---

(١) يُنظر: البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥.

بَادِرْ بِخَيْرٍ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا فَلَيْسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْتَ مُقْتَدِرُ

ومن أجمل ما قاله ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: الخطأ في الحزم خيرٌ من الخطأ في التضييع. اهـ[(١)].

فلو حزمت مع نفسك فصنفت وبحثت، أو خطبت ونصحت، ثم أخطأت بعدما اجتهدت: لكان أحسن وأفضل وأكمل من تفريطك في القيام بهذه الأمور العظيمة النافعة، التي تُثير همّتك، وتخدم أمتك.

فمن أعْظَم الْمَصائبِ على طالب العلم: أنْ يقْدرَ على التَّصْنيف وتتهيَّأ له أسبابُه، ولا يُبادر إليه حتَّى تضعف همّتُه، أو يتقدّم به العمر، أو تزدحم عليه الأشغال.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: يَنْبَغِي لِمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الْمَعْرُوفِ أَنْ يُعَجِّلَهُ حَذَرَ فَوَاتِهِ، وَيُبَادِرَ بِهِ خِيفَةُ عَجْزِهِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ فُرَصِ زَمَانِهِ، وَغَنَائِمِ إمْكَانِهِ، وَلَا يُهْمِلُهُ ثِقَةً بِقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، فَكَمْ وَاثِقٍ بِقُدْرَةٍ فَاتَتْ فَأَعْقَبَتْ نَدَمًا، وَمُعَوِّلٍ عَلَى مُكْنَةٍ زَالَتْ فَأَوْرَثَتْ خَجَلًا.

وَلَوْ فَطِنَ لِنَوَائِبِ دَهْرِهِ، وَتَحَفَّظَ مِنْ عَوَاقِبِ مَكْرِهِ، لَكَانَتْ مَغَانِمُهُ مَذْخُورَةً، وَمَغَارِمُهُ مَخْبُورَةً.

قَالَ عَبْدُ الْحَمِيدِ[(٢)]: مَنْ أَخَّرَ الْفُرْصَةَ عَنْ وَقْتِهَا فَلْيَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ فَوْتِهَا[(٣)].

---

(١) رسائل ابن حزم ١/ ٤٠١.

(٢) هو: العلامة عبد الحميد بن يحيى بن سعد الأنباري أبو يحيى الكاتب البليغ، قتل: في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٦٣.

(٣) وكذا قال ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: قلَّما رأيت أمرًا أَمْكَن فضُيِّع: إلا وفات فلم يُمْكِن بعد. [رسائل ابن حزم ١/ ٤٠٢].

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُك فَاغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ

وَلَا تَغْفُلْ عَنْ الْإِحْسَانِ فِيهَا ... فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ

اهـ[١].

والمؤمن التقي ينبغي أن يُبادر إلى ما يخدم دينه، وينفع المسلمين، ولو بالكلمة الطيبة، والخطبة الصادقة، والمقالة الناصحة.

ومن صدق مع الله تعالى في حبّه ورغبته في العمل بما يحب، ودعوة الناس إلى ما يحب الله تعالى، ونشر العلم ونفعهم: رفعه وبارك فيه، ويسر له طرق الهدى، وهداه لسبل الخير، وسخّر له من يُساعده ويعينه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: من أحبّ أن يلحق بدرجة الأبرار، ويتشبه بالأخيار، فلينوِ في كلّ يوم تطلع فيه الشمس نفع الخلق، فيما يسّر الله من مصالحهم على يديه. اهـ[٢].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: على الإنسان أن يكون مقصودُه نفعَ الخلق، والإحسانَ إليهم مطلقًا، وهذا هو الرحمة التي بُعث بها محمد ﷺ في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والرحمة يحصل بها نفع العباد، فعلى العبد أن يقصد الرحمة والإحسان والنفع. اهـ[٣].

فإذا علمتَ فجُدْ وإن لم تستطعْ ... فاجْهد بجهدك كلّه أن تنفعا

قال بعض السلف: من فتح له باب من الخير فلينتهزه؛ فإنه لا يدري متى يُغلق عليه.

(١) أدب الدنيا والدين ص٢٠٢.

(٢) شرح حديث جبريل: ٦٠٩.

(٣) جامع المسائل ٦/ ٣٧.

لَـيْـسَ فِـي كُـلِّ سَـاعَـةٍ وَأَوَانِ   تَـتَـهَـيَّـأُ صَـنَـائِـعُ الْإِحْـسَـانِ
وَإِذَا أَمْـكَـنْـتَ فَـبَـادِرْ إِلَـيْـهَـا   حَـذَرًا مِـنْ تَـعَـذُّرِ الْإِمْـكَـانِ

ولا تحتقر أيّ عمل وعلم يُمكن أن تنفع نفسك وتنفع غيرك به، فإنك لا تدري، فقد يُبارك الله تعالى لك بالقليل لصدقك، والغالب أن من يزهد بفعل القليل من الخير سيتثاقل عن فعل الكثير منه، ومن يزهد بنشر القليل من العلم سيتثاقل عن نشر الكثير منه إذا حصّل ودرس.

وخذ هذا المثال الذي ذكره بعض العلماء ليقرب لك هذا الكلام: هب أنَّ لك ولدًا متعثرًا غير مُوفَّق في حياته العملية، فنصحك إخوانك بأنْ تعطيه فرصة، وتجربه ولو بمشروع صغير في حدود مائة ريال، فلما فعلتَ بدَّد هذا المبلغ ولم ينتفع به، أتجرؤ على منحه مبلغًا آخر؟

لا، ولو استغلّ هذا المبلغ ونمَّاه لأعطيته أضعافًا.

ولله المثل الأعلى، حينما يُعطيك علمًا قليلًا، ثم لا يراك تعمل به بجدّ وإخلاص، ولا تبلغه لغيرك وتزكيه: فإنه لن يمنحك بركةً فيما علمت، ولن يعلمك المزيد من العلم النافع، وإن حصّلت مزيدًا من العلم فلربما لا توفق للعمل به، وحينها تكون على خطر عظيم، ويكون العلم حجة عليك أمام الله تعالى.

فاستثمر ـ أخي طالب العلم ـ شبابك ونشاطك في التأليف والكتابة، فهي مهارةٌ تأتي بكثرة المران والممارسة، فإذا أُهملت صعب تحصيلها.

ولربما بلغ الإنسان مبلغًا كبيرًا في العلم، ولكنه لا ينشط للتأليف ولو بالقليل، ولا يُحسنه ولا يُجيده؛ لأنه أهمل تنمية هذه المهارة في شبابِه، ولا شك أنّ أبواب الخير متعدّدة، فمن فُتح له باب منها فليغتنمه ولا يسوّف.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: ينبغي اغتنام التصنيف في وسط العمر؛ لأن أوائل العمر زمن الطلب، وآخره كلال الحواس، وربما خان الفهم والعقل من قدر عمره؛ وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة؛ لأنه لا يعلم الغيب.اهـ(١).

والتصنيف ليس له عمرٌ مُحددٌ، وإنما هي العقول متى ما وُفِّقتْ ونضجت أخرجت ما يستفيد منه الناس، لكنّ الغالب أنّ اكتساب مهارة التصنيف لا يكون إلا في أوائل العمر وأوسطه.



(١) صيد الخاطر: ٢٦٢.

٥ «أسباب القدرة على التصنيف والقراءة والبحث»:

ما منّ الله ـ تبارك اسمه وتعالى جدّه ـ على مَن صنّف وفُتح له في العلم والرسوخ فيه فإنما قدر على ذلك **بأسباب أربعة**:

السبب الأول: نعمةٌ من الله عليه بالعافية، التي بها قدر على العمل.

السبب الثاني: نعمةٌ من الله عليه بالهداية، التي بها انصرف عن الضلالة والغواية.

السبب الثالث: نعمةٌ من الله عليه بتحبيب العلم والتصنيف والقراءة والبحث له، ولو لم يُحبب ذلك له لَمَا أطاق المكث في المكتبة بين الكتب يقلبّها ويُعمل فكره فيها.

وما أجمل ما قاله الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما سُئل: هذا العلم تعلَّمته لله؟

فقال: هذا شرطٌ شديدٌ ولكنْ حُبّبَ إليّ شيءٌ فجمعتُه[١].

السبب الرابع: نعمةٌ من الله عليه بالإرادة والعزيمة، فلو عافاه الله وهداه وحبب له العلم والتصنيف والقراءة، ولكن لم يقذف في قلبه الإرادة والعزيمة لَمَا نشط على القيام بذلك.

فالكلّ بنعمة الله وحده، فلا فضل له فيما قال وكتب وعمل؛ بل الفضل لله تعالى وحده، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وإذا كان الإمام الحبر الهمام، أحمد ابن تيمية شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ،

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ١٠/ ٣٣٠.

يَقُولُ كَثِيرًا: مَا لِي شَيْءٌ، وَلَا مِنِّي شَيْءٌ، وَلَا فِيَّ شَيْءٌ، وهو من هو في غزارة علومه، وكثرة جهاده، وصبرِه وثباته وعبادته يقول هذا الكلام، فماذا يقول غيره؟ والله المستعان.



٦ «الحذر من مرضين خطيرين: رغبة الكمال والتراخي والتسويف»:

يا طالب العلم احذر مرضين خطيرين ذكرهما الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى حيث قال: (كم أماتت رغبة الكمال إنجاز كثير من جليل الأعمال، كما أمات التراخي والتسويف كثيرًا من فرائد التأليف).اهـ[(١)].

فقد ذكر الشيخ مرضين فتَّاكين يسريان في عقول كثيرٍ من طلاب العلم خاصة:

الأول: الانتظار والتمهل حتى بلوغ الكمال، فإذا دُعي لإلقاء كلمةٍ أو خطبة، أو تأليف كتاب، أو تعليمٍ: أجابك بقوله: أصبرُ حتى أتمكن وأتضلع من العلم والمعرفة!!.

وقد يكون مضى عليه عشر سنواتٍ في العلم والقراءة وحضور الدروس.

وهذا بلا شك خلل كبيرٌ سببه أحد أمور:

الأول: إما خلله في منهجية طلبه للعلم، وعدم سلوك الجادة في ذلك، مما أفقده الثقة بنفسِه.

الثاني: احْتقارُ نفسِه احتقارًا مذمومًا، والتذرع بكراهة السلف للشهرة.

الثالث: الخوف المفرط من الخطأ والنقد.

---

(١) الرسول المعلم ﷺ وأساليبه في التعليم: ٢.

ومِن هؤلاء مَن مضى عليهم سنواتٌ طويلة، ولم يُر لهم أثرٌ في مجتمعهم، فلم يكن منهم الخطيب، ولا المؤلف، ولا القائم على الدروس والمحاضرات.

ومن هذا الباب قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله: من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة، صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك: بأنه يطلب السَّلامة من الفتنة. اهـ[(١)].

ومعنى كلامه رَحِمَهُ اللهُ: أنَّه لَمَّا كان في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ـ ونشر العلم والتصنيف من أعظم أنواع الجهاد ـ: من المشقة والابتلاء، صار الكثير من الناس إذا طُلب منه القيام بما أمر الله، والصدعُ بالحق تخاذل وخذَّل غيره، وحُجَّته في ذلك أنه لا يفعل ذلك خوفًا من الفتن.

فمن تقاعس عن نشر العلم بكل الوسائل المتاحة له، أو سكت عن إنكارِ المنكر بحجة الخوف على نفسه من فتنة الشهرة أو فساد قلبه ونحو ذلك فقد وقع هو في الفتنة بسكوته وكتمانه ما أوجبه الله تعالى عليه.

ومَن تأخَّر في التصنيف لرغبته في الكمال فلن يصنف؛ فما من كتاب ـ سوى كتاب الله تعالى ـ إلا وفيه نقص إلا ما شاء الله، ولا زال أهل العلم يستدرك بعضهم على بعض.

وتجد في كبار الكتب من الخلل والأخطاء ما لا يُحصى؛ بل وتجد فيها تناقضًا، حيث يرجح المؤلف أمرًا في موضع، ثم يُرجح خلاف ذلك

(١) الاستقامة: ٤٩٩.

في موضع آخر، وهذا في الكتب المطولة، حيث يستغرق في تأليفه سنوات طويلة، تختلف قناعاته خلال هذه المدة، فحينما يرجح أو يقرر أمرًا مجتهدًا فيه، يكون قد رجح أو قرر قبل ذلك خلاف ذلك، فلا يعد هذا نقصًا ولا عيبًا.

ولو أحصينا أخطاء بعض العلماء في مؤلفاتهم لوجدناها تتجاوز العشرات؛ بل تتجاوز المئات.

وقد قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: ألفت هذه الكتب، ولم آل فيها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. اهـ[١].

ومن بديع الاستنباط: قول العلامة السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]: في الآية العذر للمصنفين فيما يقع لهم من الاختلاف والتناقض؛ لأنَّ السلامة عن ذلك من خصائص القرآن. اهـ[٢].

فهذا هو المنهج الذي يجب على طلاب العلم والعلماء أن يسيروا عليه.

والثاني من الأمراض التي ذكرها الشيخ رحمه الله تعالى: التراخي والتسويف، وهذا أمرٌ يعرض لأكثر طلاب العلم؛ بل لكثير من المتمكنين من العلم، وقد أدى بهم ذلك إلى حرمان الأمة من علومهم وخيراتهم.

وكم من إنسان جاهد نفسه في تأليف كتابٍ يبتغي به نفع الأمة، وتحفيز نفسه على الجد والبذل، فكان هذا التأليف سببًا في رفعته

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر ٥١/ ٣٦٥. (٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص٩٥.

وبركته؛ بل وجرَّه ذلك إلى عشرات المؤلفات، وما ذلك إلا لبركة النية الصادقة في نفع المسلمين.

بل إن بعض المؤلفين لم يخطر بباله أنه يستطيع أنْ يُؤلف كُتيبًا صغيرًا، ولا يرى نفسه أهلًا لذلك، فلما ألَّف أول كتابٍ ورأى جماله، وسمع ثناء الناس عليه: تنشّط للتأليف، فألف بعدها كتبًا كثيرةً.

وهذ الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ، قال عنه الإسنوي رَحِمَهُ اللَّهُ موضِّحًا سبب كثرةِ مؤلفات النووي بالرُّغم من قصر عمره: (ووقوع هذا للشيخ محيي الدين النووي أكثر، وذلك أنه لما تأهل للنظر والتحصيل، رأى من المسارعة إلى الخيرات أن جعل ما يحصله ويقف عليه تصنيفًا، ينتفع به الناظر فيه، **فجعل تصنيفه تحصيلًا، وتحصيله تصنيفًا**..، ولولا ذلك لم يتيسر له من التصانيف ما تيسر، فإنه رَحِمَهُ اللَّهُ دخل دمشق للاشتغال وهو ابن ثمانية عشرة سنة، ومات ولم يستكمل ستًّا وأربعين).اهـ[1].

فمن المهم لطالب العلم أن يعود نفسه على التصنيف والبحث؛ فهو من العوامل المهمة التي تبني شخصية طالب العلم الجاد، ولْيترك الْمُبالغةَ في احتقار نفسه، فإنه قد يكون من طرق الشيطان التي تمكن بها من تحجيم قدراته وإبداعاته.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أن من حيل الشياطين على المؤمن: أن يُشْغلوه بالطَّاعاتِ الْمفْضُولةِ، لِيَشْغَلُوهُ بِهَا، عن الطَّاعاتِ الْفاضلَةِ الْكثيرة الثَّوابِ، فَيُعْمِلُ حِيلتَهُ في تَرْكهِ كُلَّ طَاعةٍ كَبيرةٍ نافعة، إلَى مَا هُوَ دُونَهَا وأقلَّ منها، فيأمُرُه بفعل الخير المفضول، ويحثُّه عليه، ويُحَسِّنه له، حتى يدعَ ما هو أفضلُ وأعلى منه.

(١) المهمات في شرح الروضة، للرافعي ١/ ٩٩.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس، ولم يصل علمُه إلى أنَّ الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما ليتوصَّل بها إلى بابٍ واحد من الشر، وإما ليفَوِّت بها خيرًا أعظمَ، وأجلَّ وأفضل من تلك السبعينَ بابًا. اهـ[1].

فالشيطان قد يحبّب لطالب العلم النفرة من الشهرة، والمبالغة في إصلاح سريرته ونيته، لِيُشْغِلَه بذلك عن الطَّاعاتِ الْفاضلَةِ الْكثيرة الثَّوابِ؛ كالدعوة إلى الله تعالى، والتصنيف وإلقاء الخطب والمحاضرات.



(١) بدائع الفوائد ٢/ ٤٨٥.

٧ «لكل أهل زمان ما يناسبهم من الكتب»:

لكل زمان ما يناسبه، فالتأليف لا يعني الإتيان بشيء لم يأت به الأوائل؛ بل يعني: أن يؤلف ما يُناسب أهل عصره.

وكم في بعض الكتب الكبيرة من العلم والفوائد الجمة الغفيرة، ولكن لكبر حجمها، وصعوبة أسلوب مؤلفيها: جعلت الناس وطلاب العلم بل وكثيرًا من العلماء يُحجمون عن قراءتها، وحينما يأتي من يهذبها، ويعلِّق عليها، ويشرح غامضها، ويبرز دررها: يسهل على الناس قراءتها، وينتفعون بالتهذيب أعظم من انتفاعهم بالأصل.



٨ «التهذيب والاختصار من أنواع التأليف النافع»:

من أنواع التأليف: التهذيب والاختصار، وذلك بأنْ يُلخِّص طالب العلم الكتاب تلخيصًا دقيقًا، ويسْتخرج زبدته ولُبَّه.

والتلخيصُ دَيدنُ كثيرٍ من العلماء السابقين، والأئمَّةِ الربانيين، فهذا العلَّامةُ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ لخَّص كتاب «مِنْهاج السُّنَّة» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وسمى تلخيصه: «المنتقى».

والشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، لخص عدة كتب منها: «الشرح الكبير مع الإنصاف»، وسمَّاه: «مختصر الإنصاف والشرح الكبير».

والعلامة البعليّ اختصر «الفتاوى المصرية» لابن تيمية رحمهما الله.

وهذا لعلمهم رحمهم الله تعالى أن اختصار الكتب أنفع لهم ولغيرهم مِن بعدهم.



٩ «فوائد اختصار الكتب»:

اختصار الكتب له فوائد كثيرة جدًّا، **من أهمها**:

أ ـ حفظ كتب الأصل، وتظهر هذه الثمرة في الزمن السابق: والأمثلة لذلك كثيرة، **أكتفي بمثالين**:

ـ كتاب «سيرة ابن هشام»، التي هي في الأصل اختصارٌ لسيرة ابن إسحاق المفقودة.

ـ كتاب «غاية النهاية» لابن الجزري اختصار ـ مع زيادات أخرى كما أوضح ذلك في المقدمة ـ لكتاب طبقات القُرَّاء لأبي عمر الداني المفقود.

ب ـ أنه يُعين على ضبط وإتقان الملخص.

ج ـ نفع الناس، وتيسير الكتب المطوَّلةِ لهم، فما كلّ أحدٍ يقدر على قراءة الكتب المطولة.



١٠ «طريقة سهلة نافعة في الاختصار»:

أسهل وأحسن وسيلةٍ لاختصار الكتب في العصر الحاضر: أن تجعل الحاسب الآلي أمامك، وتفتح الكتاب الإلكتروني من خلاله، وهو في الغالب موجودٌ في البرامج الإلكترونية، مثل المكتبة الشاملة، وتجعل الكتاب الورقيّ بين يديك، فعندما تمر بفائدة، أو تريد تلخيص كلام: اذهب إلى مكانه في الحاسب، وقم بنَسْخه ولصقه في ملف الوورد، بدلًا من الكتابة باليد.

وافتح مُجلَّدًا لكلِّ كتابٍ تقرؤه، ثم افتح فيه نوافذ وورد، **واكتب على كلّ ملفٍ ما يلي**:

١ ـ منهجيَّة المؤلِّف في كتابِه وشخصيَّتُه وعقيدتُه.

ثم دوِّن فيه ما يتعلق بهذا الموضوع، وأعط قلمك الحرية والمرونة.

٢ ـ نبذة تعريفيّة عن الكتاب، وهي شبيهةٌ بالفهرس، وهذه تكتبها أثناء قراءتك له، ولا تعتمد أبدًا على جهد المحقق.

٣ ـ فوائد في العقيدة.

٤ ـ فوائد في الفقه.

٥ ـ فوائد في السلوك.

وعلى حسب الكتاب تفتح نوافذ أكثر، فإن كان يهتمّ بالحديث فضع ملفًا اسمه: فوائد حديثيّة ونحو ذلك.

٦ ـ المآخذ العلمية على الكتاب.

٧ ـ ترجيحاتُه.

٨ ـ ردودُه واسْتدراكاتُه.

وخلال القراءة تأمَّلْ في أيِّ كلامٍ وترجيحٍ لم تقتنعْ منه، وتأملْ في أيِّ حديثٍ فيه ضعفٌ أو كلام ـ والْمُحقّق يُبَيِّنُ ذلك غالبًا ـ وإذا مرّ بك تصحيفٌ أو خطأٌ مطبعيٌّ فعدِّله وصوِّبه.

واكتب في الحاشية ما تراه من تعليقٍ أو تعقيب أو تصحيحٍ ـ دون البحث في المراجع الأخرى، وإلا لطال الزمن في القراءة ـ.

وكن جريئًا وواثقًا خلال تعليقك وترجيحك وإبداءِ رأيك.

فإنّ كلّ قولٍ لا نصّ فيه من الشرع الحكيم قد يقبل الأخذ والردّ، والْمُصَنّفون في الأصول والفقه والنحو وعلوم القرآن لم يجعلوا كتبهم حُجّةً يجب الرجوعُ إليها في كلّ شيء، ولم يدّعوا أنّ أقوالهم كلّها صحيحةٌ لا يجوز الاستدراك عليها.

قال الشاطبي رحمه الله تعالى في مقدّمة كتابه: «الموافقات»[(١)] شارحًا الغرض من تأليفِه: لِيَكُونَ ـ أَيُّهَا الْخِلُّ الصَّفِّيُّ، وَالصَّدِيقُ الْوَفِيُّ ـ هَذَا الْكِتَابُ عَوْنًا لَكَ فِي سُلُوكِ الطَّرِيقِ، وَشَارِحًا لِمَعَانِي الْوِفَاقِ وَالتَّوْفِيقِ، لَا لِيَكُونَ عُمْدَتَكَ فِي كُلِّ تَحَقُّقٍ وَتَحْقِيقٍ، وَمَرْجِعَكَ فِي جَمِيعِ مَا يعنُّ لَكَ مِنْ تَصَوُّرٍ وَتَصْدِيقٍ؛ إِذْ قَدْ صَارَ عِلْمًا مِنْ جُمْلَةِ الْعُلُوم، وَرَسْمًا كَسَائِرِ الرُّسُوم، وَمَوْرِدًا لِاخْتِلَافِ الْعُقُولِ وَتَعَارُضِ الْفُهُوم، لَا جَرَمَ أَنَّهُ قَرَّبَ عَلَيْكَ فِي الْمَسِيرِ، وَأَعْلَمَكَ كَيْفَ تَرْقَى فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَإِلَى أَيْنَ تَسِيرُ، وَوَقَفَ بِكَ مِنَ الطَّرِيقِ السَّابِلَةِ عَلَى الظَّهر، وَخَطَبَ لَكَ عَرَائِسَ الْحِكْمَةِ ثُمَّ وَهَبَ لَكَ الْمَهْرَ.

(١) ص١١ ـ ١٢.

فقدِّمْ قَدَم عَزْمِكَ؛ فَإِذَا أَنْتَ بِحَوْلِ اللهِ قَدْ وَصَلْتَ، وَأَقْبِلْ عَلَى مَا قِبَلك مِنْهُ؛ فَهَا أَنْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ قَدْ فُزْتَ بِمَا حَصَّلْتَ، وَإِيَّاكَ وَإِقْدَامَ الْجَبَانِ، وَالْوُقُوفَ مَعَ الظَّنِّ وَالْحُسْبَانِ، وَالْإِخْلَادَ إِلَى مُجَرَّدِ التَّصْمِيمِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ، وَفَارِقْ وَهَد[1] التَّقْلِيدِ رَاقِيًا إِلَى يَفَاع الِاسْتِبْصَارِ». اهـ.

تأمل قولَه: «لَا لِيَكُونَ عُمْدَتَكَ فِي كُلِّ تَحَقُّقٍ وَتَحْقِيقٍ، وَمَرْجِعَكَ فِي جَمِيعِ مَا يعنُّ لَكَ مِنْ تَصَوُّرٍ وَتَصْدِيقٍ»؛ أي: لا تجعل ما في كتابي هو العمدةَ والمرجع الوحيد؛ بل اجعله عونًا لك على الفهم وتقريبِ العلم، فقد يكون فيه ما يُخالف المذهب الحقّ، وليس كلامي نصًّا من القرآن والسُّنَّة لتحتج به على غيرك، ولكن اسْتئنس به واسْتشهد به.

ثم تأمل كيف نهاك عن التقليد له أو لغيرِه.

وقد «جعل التقليد بمنزلة الوَهَد، وهو المنخفض من الأرض؛ لأن المقلد لا يرمي ببصره إلى ما وراء قول متبوعه أو فعله، فكأنه في منحدر تمنعه جوانبه من أن يمد عينه إلى ما خلفه من ملكوت السمٰوات والأرض، وجعل التبصر بمكان اليفاع وهو الرابية؛ لأن المتبصر لا يقف بفكره جامدًا على ما يسبق إليه من قول أو يشهده من عمل؛ بل ينفذ ببصيرته الصافية إلى مرتقى الاستدلال؛ فكأنه قائم على أكمة يشرف منها على مواقع شتى ليتخير من بينها أبدع المناظر وأصفى الموارد»[2].

والمقصودُ أنْ تعلّق في الحاشية ما تراه وما تُلاحظه.

فعندها ستشعر بانتماءٍ عجيبٍ نحو الكتاب، ومحبةٍ وشغفٍ لإكماله، وفائدةٍ عظيمة عند الانتهاء منه.

---

(١) الوهد: الأرض المنخفضة.

(٢) حاشية محمد الخضر حسين ومحمد حسين مخلوف في تحقيقهما للكتاب.

وتكون بهذا قدْ وَعَيْت الكتاب وفهمتَه، ويسهل عليك اسْتحضاره والرجوع لأيّ جزءٍ من أجزائه.

واعلم أنّ القراءة المجردة لا تخرج منها إلا بفوائد قليلة جدًّا، ما لم يصحبها عملٌ وجهد؛ كالتلخيص والعمل بالعلم والتعليم ونحو ذلك.



١١ «فوائد تقييد الخواطر»:

من أهمّ وأفضل الأشياء: تقييد طالب العلم لخواطره، وتأملاته واستنباطاته.

ومما لا ريب فيه أنّ الخاطرة هي أساس أغلب المشاريع الضخمة، وأول لبنات المؤلفات النافعة، وأصلُ التأملات والاستنباطات البديعة.

«فينبغي أنْ تُدوّن ما يخطر في بالك من خواطر مهمّة في أيّ وقت، ولا تقل: إذا ذهبتُ إلى البيت سأدّونها، فسرعان ما تذهب عنك الخواطر المهمة، والقريحة الجيّدة.

واكتب ما يُمليه عليك خاطرك، دون العناية بالألفاظ والبلاغة والمقدمة، ودوِّن ما عَلِقَ بمُخيلتك مباشرةً دون تأجيل؛ لأنك لو أجلّت لضاعت الأفكار والخواطر.

وكتابةُ ما في الخاطر مُباشرةً من أهم الأمور، فكثيرًا ما تلوح في الخاطر عبارات جميلة، وخواطر مُهمّة، فإن لم تدوِّنْها ذهبت، ولو بقيت صعب تدوين الصيغة المناسبة لها، فمن حين ما تأتي الخاطرة تأتي الصيغة المناسبة والأسلوب الجميل معها، ولذلك فمن أشد ما يخسره من يُفرط في تدوين الخواطر ضياعُ الصيغة المناسبة والأسلوب الرائع لها.

وكلّما ازداد علم الإنسان، وعظمت خبرتُه، ونضج عقلُه، وقوي إيمانه بربّه: كثرتْ خواطرُه، وعظم قدرها، وجزل معناها، وعمّ نفعُها.

فالعقولُ كمخالب الطيور الجارحة، كلّما كبرت وطاب نوعُها: كبرت مخالبها وصادت الجزل من الفرائس، ولا تكاد تُخطئ، وإذا كانت

صغيرة، أو كان نوعها رديئًا: لا تكاد تصيد، وإن صادت صادت صغار الفرائس وأضعفها.

وأهل العلم الأفاضل أشدُّ حرصًا على صيدِ خواطرهم من الصياد لفريستِه.

وكثيرًا ما يخطر للإنسان شيءٌ فيعجبه ويظن أنه قد عَلِق بذاكرته، فإذا هو في الغد قد ضاع منه، وضاع معه مِفْتاحه، فانتهي إلى حيرةٍ في استعادته واسترجاعه.

فإذا ضاع القيد ذهب الصيد.

وصدق القائل:

فالعِلم صيد والكتابةُ قَيْدُهُ قيِّد صُيُودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أنْ تصيد غزالةً وتتركها بين الخلائق طالقة

وإذا لاحت الخاطرة لأحدهم بادر بصيدها، وإذا لم تكن معه آلة الصيد ـ كالقلم والورق ـ: لم تسمح له نفسُه بتأخير صيدها خوفًا من ضياعها وهروبها، فيتحيّل لذلك بشتى الحيل، كأنْ يرددها حتى يحفظها.

ولو كان في مكانٍ لا يتمكن فيه من الصيد لم يدعها تذهب؛ كأن يكون يقود السيارة، أو مع أصحابه أو قبيل خطبته أو درسه أو محاضرتِه، ولهم مواقف طريفة في ذلك.

والخواطر كالبرق، في سرعةِ مُرورها وذهابِها وقوةِ إضاءتها، وبعض أنواع البرق يكون قويًا جميلًا مُضيئًا، وبعضه ضعيفًا خافتًا، وكذلك الخواطر، فهي ترد على الذهن وتزول بسرعة غالبًا، وبعض الخواطر تكون جميلةً نافعةً، وإذا أحسن صاحبها استغلالها وتوظيفها

عظم نفعُها، وعمّ خيرُها، وجلّ تراث العلماء واختراعات المخترعين كانت في بدايتها خاطرة عابرة.

وبعض العامة قد تخطر لهم خواطر لا تخطر على أذكياءِ الناس، ولقد قيّدت خواطر بعض عامة الناس وفرحت بها، وبادرتُ إلى تقييدها بأسلوبي مع شيء من الإضافات والتجميل.

وكنت أعجب من تلك الخواطر كيف مرت على عقولهم، وجرت على ألسنتهم»[١].

وفي تقييد الخواطر خمسةُ فوائد:

الأولى: أنه وسيلةٌ نافعةٌ لتحسين الأسلوب في الكتابة والتعبير.

الثانية: أنه من أعظم أسباب حفظها وضبطِها، وهي أشدُّ تفلّتًا من الإبل في عُقْلها، وأسرع هربًا من الصيد في شبكة صائده.

فهذه الخواطر إذا لم يُدوّنها صاحبُها في حينها: هربت وطارت وتلاشت، ولن يستطيع تذكرها بعد ذلك ولو سهر الليالي، وهي بمقدوره في وقتها خلال ثوانٍ معدودة؛ بل قد تزول من ذاكرته تمامًا، وكأنها لم تخطر بباله قبل ذلك.

فكم في هذه الخواطر من الخيرات والبركات والنفع على صاحبها وعلى الناس.

وإذا دُوِّنت هذه الخواطر النفيسة، والتي هي من بنيّات أفكاره، وكذلك الفوائد الفريدة التي يقيدها من بطون الكتب خلال قراءته واطلاعه بنفسه، أو استفادته من غيره: فسوف يحفظها، وتستقرّ في قلبه وعقله،

---

(١) عِبَاراتٌ أَثَّرَتْ عَلَيَّ وَغَيَّرَتْ فِيْ حَيَاتِي: ١٦٤ ـ ١٦٦.

وتكون على طرف لسانه متى احتاجها، فإذا كان في درس علميّ، أو في مجلس أو ندوة أو محاضرة ثم جاء لذكرها مناسبةٌ سهل عليه إيرادها وإفادة الناس بها.

ولو لم يكن من ثمرات تدوين الخواطر والفوائد إلا هذه لكفى.

الثالثة: أنّ فيه نفعًا للآخرين، فلعل من يطلع عليها أو على بعضها يستفيد في علمه أو عمله، وتكون عبرة وعظة، ولا يدري الإنسان ما هو العلم الذي إن نشره كان أعمّ نفعًا، وأعظم بركة، وسببًا في مغفرة الله له، ورفعة درجاته، والمرء سيموت حتمًا، وقد يبقى ذكره حيًّا بين الناس، أفلا يحبّ أحدنا أن يبقى ذكره طيّبًا ويُدعى له إذا فني جسده؟

ألم تر أنَّ الناسَ تَخْلُدُ بعدهم   أحاديثُهم والمرْءُ ليس بخالد؟

وكتابة الخواطر والذكريات ديدن كثير من العلماء والفضلاء، وقد نفع الله بها نفعًا عظيمًا، والأمثلة كثيرة، ويكفي منها أعظم وأكبر ما أُلِّف في هذا الباب، وهو كتاب الفنون لابن عقيل الحنبلي، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه: كان له الخاطر العاطر، والبحث عن الغامض والدقائق، وجعل كتابه المسمى بـ«الفنون» مناطًا لخواطره ووقعاته.اهـ[1].

فكم في تدوين الخواطر وتقييد الفوائد النادرة من منافع لا تُحصى.

وأعرف من كان يدوّن خواطره والفوائد النادرة من الكتب التي كان يقرؤها، فبلغت عدد صفحاته قرابة ألفٍ وثلاثمائة صفحة، فقام في تهذيبها وترتيبها وتصنيفها، فكانت المحصلة: أربعة كتب نافعة.

فلو لم يحفظ هذه الخواطر لَمَا خرجت هذه الكتب.

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٢٤.

فتأمل ـ أيها القارئ الكريم ـ كيف أثمرت مثل هذه التدوينات والخواطر العارض، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

والأحسن لمن دوّن أي خاطرة أنْ يحققها وينقحها في وقتها، ما دام الذهن حاضرًا وقتها.

فلا تزهد ـ أخي القارئ ـ بخواطرك، فقد تكون يومًا كتابًا ينفعك الله به.

الرابعة: أنه عونٌ للإنسان على صقل مهارةِ الكتابة، والدّربة عليها، والرقيّ بها.

والتأليف والكتابة ملكةٌ ومهارة قابلةٌ للتطوير، فمن مرّن يده عليها انساحت أفكاره، وجرت على لسانه الخواطر كجريان السيل في المنحدر، وسهلت عليه صياغة العبارات؛ وأصبح لا يأخذ وقتًا في التفكير في اختيار العبارات المناسبة، بتوفيق الله تعالى.

الخامسة: أنّ هذه الخواطر والتدوينات تُناسب أنْ تُنقل إلى مؤلفات يؤلّفها لاحقًا، حسب ما يراه مناسبًا، فهي مادة علميّة جاهزة.

ولقد وقفت على كلام جميل للشيخ علي الطنطاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوصي بتدوين الخواطر، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس لديّ أوراق مكتوبة أدوّن فيها الحادثة حين حدوثها، وأصف أثرها في نفسي، وهذا تفريط كاملٌ مني، لم يعد إلى تداركه من سبيل، لذلك أوصي كل قارئ أن يتخذ له دفترًا يدوّن فيه كل عشيّة ما رأى في يومه، لا أن يكتب ماذا طبخ وماذا أكل؟

بل أريد أن يسجل ما خطر على باله من أفكار، وما اعتلج في نفسه من عواطف، وأَثَر ما رأى أو سمع في نفسِه، لا ليطبعها وينشرها،

فما كلُّ الناس من أهل الأدب والكتابة والنشر، ولكن ليجد فيها يومًا نفسه التي فقدها. انتهى[(١)].

إنَّ الشيخَ يوصينا بوصيةٍ مهمةٍ ألا وهي كتابةُ المذكرات، والأفكار، والمشاعر.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تحسر على عدم وجود أوراق ليدوّن فيها الحادثة حين حدوثها، ويصف أثرها في نفسه، وحقّ له أن يتحسر، ولقد خسر هو وأهلُه والناس بعد ذلك كنوزًا كانت مغمورة في صدره، ولو كانت بين يديه تلك الأوراق لأخرجها وأدّى زكاتها، وانتفع بها هو وملايين الناس.



(١) الذكريات ١/ ١٧.

١٢ «أهميّة البحث والترجيح لطالب العلم»:

من أعظم لذات العلم: حينما يتوصل طالب العلم لتحقيق مسألة صعبت عليه، ويتبين له الحقّ فيها، فإنه يهجم عليه شعورٌ لا يكاد يُوصف، ولا يقدر على شكر الله في هذه الحالة إلا بسجود الشكر ولن يُوفّيه حقّه سبحانه.

قال العلامة ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: أحدثك في ذلك بما نرجو أن ينتفع به قارئه إن شاء الله تعالى، وذلك أني كنت معتقلًا في يد الملقب بالمستكفي وهو محمد بن عبد الرحمٰن بن عبيد الله بن الناصر[1]، وكنت لا آمن قتلته؛ لأنه كان سلطانًا جائرًا ظالمًا عاديًا، قليل الدين كثير الجهل، غير مأمون ولا متثبت، وكان ذنبنا عنده صحبتنا للمستظهر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

وكنت مفكرًا في مسألة عويصة من كليات الجمل التي تقع تحتها معان عظيمة كثر فيها الشغب قديمًا وحديثًا في أحكام الديانة، وهي متصرفة الفروع في جميع أبواب الفقه، فطالت فكرتي فيها أيامًا وليالي، إلى أن لاح لي وجه البيان فيها، وصح لي وحق لي الحق يقينًا في

(١) تعرض ابن حزم لذكر المستكفي في كثير من مؤلفاته، ووصفه بأنه كان في نهاية الضعة والسقوط والضعف والتأخر.

(٢) بويع المستظهر وهو: عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار في رمضان سنة ٤١٤هـ فاستوزر ابن حزم وابن شهيد، ثم ثار عليه محمد بن عبد الرحمٰن الناصري في شهر ذي القعدة من العام نفسه وقتله وبويع بالخلافة وتلقب بالمستكفي، وقد سجن ابن حزم وابن عمه أبا المغيرة، وأقام في الخلافة ستة عشر شهرًا عاد بعدها أمر قرطبة إلى بني حمود وفر المستكفي إلى ناحية الثغر ومات في مقره.

حكمها وانبلج، وأنا في الحال الذي وصفت، فبالله الذي لا إلٰه إلا هو الخالق الأول، مدبر الأمور كلها، أقسم الذي لا يجوز القسم بسواه، لقد كان سروري يومئذ وأنا في تلك الحال بظفري بالحق فيما كنت مشغول البال به وإشراق الصواب لي أشد من سروري بإطلاقي مما كنت فيه. اهـ[(١)].

وللبحث والاستنباط والتأمّل والتدبّر عند طالب العلم لذة لا يعلم قدرها إلا الله تعالى، وأما القراءة المجردة وتتبُّع الملخصات: فمُتْعتها يسيرة، ومنفعتها محدودة، وتُورث العجز، وموت الخواطر، وأُفول الاستنباط.

فالبحث والترجيح من أهم ما ينبغي على طالب العلم أن يعتني به؛ وذلك لأن فيه فوائد ومنافع كثيرةً جدًّا، منها:

أولًا: أنه أفضل طريقٍ لنيل العلم وتأصيله، فإذا مرَّتْ بك مسألةٌ أو حكمٌ فقم بالبحث عن أدلته وبراهينه، واسْتنبط الحكم بنفسك، ودقّق ونقّح ورجّح، ثم اعرضه على شيخك أو أحد العلماء أو طلاب العلم، فستخرج بفوائد عظيمة.

ثانيًا: أنه يُؤدي إلى الحرص والحماس والنشاط، والشعور بالراحة والرضى في سيرك العلمي.

ثالثًا: أنه يوصل إلى الفهم التامّ لمسائل العلم، وإفتاء الناس بمسائل توصلت إلى أحكامها، بعد بحث واستقصاء للأدلة الشرعية وأقوال أهل العلم.

---

(١) رسائل ابن حزم ٤/٣٤٦.

ولا يُمكن أن يصل طالب العلم إلى مرحلة الإفتاء إلا بكثرةِ البحوث والتحقيقات، التي من خلالها يتوصل إلى الحكم بدليله، مع الفهم التامّ لأصول المسائل بأدلتها.

والبحث يكون لطالب العلم المبتدئ في غير قراءته المنهجية، حتى لا يتشتت؛ بل إذا انتهى من حفظه أو قراءته رجع إلى المسائل المشكلة عنده فَبَحَثها وتَحَقَّقَ منها.

ويتأكد البحث والترجيح والنظر في الأدلة لطالب العلم الذي قطع شوطًا في طلب العلم، وأمضى زمانًا في حضور الدروس والقراءة، ولا ينبغي له أنْ يُقلِّدَ شيخه ويكتفي بترجيحاتِه وتقريراتِه(١).

والكثير من المؤلفات إنما كانت في الأصل بحثًا.



(١) يُنظر: آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه، للمؤلف: ١١٢ ـ ١١٣.

١٣ «كيف يصنف فلانٌ من الناس الكتب، وفيهم من هو أعلم منه ومع ذلك لم يؤلفوا؟»:

قد تساءل بعض الناس ويقول: كيف يصنف فلانٌ من الناس هذه الكتب والأبحاث، وينشرها بين الناس، وفيهم من هو أعلم منه وأفهم وأحفظ وأتقن، ومع ذلك لم يؤلفوا ويكتبوا؟

والحق أنْ يُقال: هذا جهده، وهذا ما يدين الله به، ويشعر أنه مؤتمن على علمه، وأنه من أوجب الواجبات عليه أن ينشر علمه حسب طاقته، وما عليه من فلان وفلان، فقد تكون لهم أعذار لا يعلمها، فلن يكتم علمه حتى يرى مَن هو أعلم منه قد نشر كتبه ومؤلفاته.

وقد قال أبو حيان في كتابه «البصائر والذخائر»: (هذا الكتاب قد جعلته خزانة لنفسي، ومرجعًا لدرسي، ففي نظرائي وأشكالي من فهمه أثبت من فهمي، وذهنه أنفذ من ذهني، وحفظه أغزر من حفظي، وقلبه أذكى من قلبي، **لكني آثرت أن يكون لي فيمن دوني أثر، كما كان لمن فوقي عندي أثر**).اهـ[١].

وقال أَبو مُحَمَّد ابن حَزْمٍ رَحِمَهُ اللهُ: الْحَظُّ لِمَنْ آثَرَ الْعِلْمَ وَعَرَفَ فَضْلَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ جُهْدَهُ، وَيُقْرِئَهُ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ، وَيُحَقِّقَهُ مَا أَمْكَنَهُ؛ بل لَوْ أَمْكَنَهُ أَنْ يَهْتِفَ بِهِ عَلَى قَوَارِعِ طُرُقِ الْمَارَّةِ ويدعو إليه في شوارع السَّابِلَةِ وَيُنَادِي عَلَيْهِ فِي مَجَامِعِ السَّيَّارَةِ؛ بل لَوْ تَيَسَّرَ لَهُ أَنْ يَهَبَ الْمَالَ لِطُلَّابِهِ، وَيُجْرِيَ الْأُجُورَ لِمُقْتَبِسِيهِ، وَيُعْظِمَ الْأَجْعَالَ لِلْبَاحِثِينَ عَنْهُ، صَابِرًا فِي ذَلِكَ عَلَى

(١) ٧/ ٢٦٩.

الْمَشَقَّةِ وَالْأَذَى: لَكَانَ ذَلِكَ حَظًّا جَزِيلًا، وَعَمَلًا جَيِّدًا، وَسَعْيًا كَرِيمًا، وَإِحْيَاءً لِلْعِلْمِ، وَإِلَّا فَقَدَ دَرَسَ وَطُمِسَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا آثَارٌ لَطِيفَةٌ، وَأَعْلَامٌ دَائِرَةٌ. اهـ(١).



(١) رسائل ابن حزم ١/ ١٠١.

١٤ «كيف استطاع المؤلف الصبر على مرّ التأليف»:

يتساءل بعض المؤلفين إذا انتهى من تأليف كتابٍ له: كيف استطعت تأليفه، وكيف صبرت عليه، وكيف لم أملّ من طول المكث على تأليفه؟

ولا شكّ أنّ التأليف يمرّ بمراحل كثيرة، فيها المشقة والتعب والجهد الكبير، ولولا توفيق الله تعالى، وما يقذفه من حلاوةٍ أثناء التأليف والقراءة والبحث، التي ينسى المؤلف بسببها الآلام والأتعاب: لَمَا طاف الصبر على هذه المشاق في الغالب.

وحينما ينتهي من التأليف تذهب عنه تلك الحلاوة، فيهجم عليه هذا الشعور، فما يسعه إلا أن يقول: لك الحمد ربي على توفيقك وتيسيرك.

وهذا ليس داخلًا في محضِ إرادته وجهده، فمن الذي قذف في قلبه تلك العزيمة التي تجعله يصبر على مرّ التأليف والبحث وجرد المطولات والانقطاع؟

ومن الذي عافاه في بدنه وسمعه وبصره؟

ومن الذي عافاه في أهله وأولاده ورزقه؟ ولو ابتلي بالفقر أو مرض الأهل والأولاد لانشغل بهم ذهنيًّا وبدنيًّا؟

ومن الذي هداه ليتجه إلى تأليف ما هو مفيد، ولم يجعل همّته في تأليف ما لا نفع فيه، أو ما فيه ضرر ومفسدة، كما هو حال كثير ممن يكتب ويصنف، ولهم همٌّ أعظم من همّته؟

كلّ هذا من الوهاب الرحيم الكريم ، وإنما هو عبد فقير ضعيفٌ جرت عليه نعم الكريم، فسخَّره لنشر العلم والخير.

وكأنّ الله تعالى يسوقه نحو تأليف هذه الكتب النافعة سوقًا، ويريد منه أن يكتب ويصنف في هذه العلوم، فلا رخصة له في تأجيل نشر علمِه وكتبِه.



الفنّ الثالثُ

العمل بالعلم وتعليمُه، والتأدّب بآدابِه

كن على يقين ـ **يا طالب العلم** ـ أنّ التوفيق لا يكون حليفك إلا إذا صدقت مع الله تعالى، وأخلصت العلم له، واجتهدت في عبادتِه سبحانه، وصلاح قلبك، ونصح المسلمين، وبذلتَ الجهد في الدعوة إلى الله تعالى بما تستطيع.

واعلم بأنّ جلّ القلوب مشحونةٌ بالخبائث والأمراض، وطالب العلم في بداية طلبه للعلم لا يحس بها؛ لأنه مشغول بالطلب والعلم وحضور الدروس، ولم يجرب الناس ويُخالطهم ويتصدر لهم ولأذاهم وحاجاتهم، ولم يتعرض للمناصب والشهرة، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه وانشغل بها: لم يظهر منه خبث ما انطوى عليه قلبُه.

وإذا ما كبر وخالط الناس وتعرض للشهرة، وأقبلت عليه الدنيا، واستشرفت له الفتن والمناصب: ظهر منه خبث ما انطوى عليه قلبُه منذ عهد الطلب وزمن الصبا والجهل.

وما أقبح أنْ تظهر هذه الأخلاق الرديئة على من يُشار إليه بالعلم والجاه!

ولا يليق بك أبدًا أن تسبقك العامةُ إلى الطاعات والفضائل، وإذا سبقتك فما قيمة العلم الذي تحمله، وما فائدته وما ثمرته؟

سُئل إمام أهل السُّنَّة والجماعة، أَحْمَد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عَنِ الرجل يكتب الحديث فيكثر؟

قَالَ: ينبغي أن يكثر العمل به عَلَى قدر زيادته فِي الطلب.

ثم قَالَ: سبيل العلم مثل سبيل المال، إنَّ المال إذا زاد زادت زكاته. اهـ(١).

واعلم أنّ العلم يُكسب صاحبه العزّة، والقوة، والرفعة، والحجة، ولذلك سمَّى الله تعالى الحجة المبْنِيَّة على العلم سلطانًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: سمَّى الله سُبْحَانَهُ الْحجَّة العلمية سُلْطَانًا؛ كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ [الصافات: ١٥٦]؛ يَعْنِي: حجَّة وَاضِحَة.

وَالْمَقْصُود: أن الله سُبْحَانَهُ سمى علم الْحجَّة سُلْطَانًا؛ لأنها توجب تسلط صَاحبهَا واقتداره، فَلهُ بهَا سُلْطَان على الْجَاهِلين؛ بل سُلْطَان الْعلم أعظم من سُلْطَان الْيَد؛ وَلِهَذَا ينقاد النَّاس للحجة مَا لا ينقادون لليد؛ فإنّ الْحجَّة تنقاد لَهَا الْقُلُوب، وأما الْيَد فَإِنَّمَا ينقاد لَهَا الْبدن؛ فالحجة تأسر الْقلب، وتقوده، وتُذِلُّ الْمُخَالف، وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لَهَا، ذليلٌ مقهور تَحت سلطانها. اهـ(٢).

فمن لم يُلجم سلطان العلم بلجام الإيمان، والتقوى، والورع، والعمل بما علم: طغى أشد من طغيان سلطان اليد، وتاه صاحبه، وأكثر من التقلّب، والبطر، والغرور، والبغي، حتى يكون أشدّ تسلطًا من الحاكم الجائر؛ لأنَّ عنده سلطانين: سلطان العلم وسلطان اليد، بخلاف الحاكم الجاهل.

---

(١) طبقات الحنابلة ١/ ١٨٨.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ١/ ٥٩.

ولو تمكّن من الحكم لربما سعى في الأرض فسادًا وظلمًا.

والجهل مع التقوى، خيرٌ وأنفع من العلم بلا تقوى، ولذلك تجد كثيرًا من العُبّاد والصالحين متواضعين، محبين للخير وأهله، ليس فيهم عجب ولا غرور ولا ازدراء ولا تسلّط، ولا احتقار للآخرين، وهم من عوام الناس.

بخلاف العالم العريّ من التقوى، فتراه إذا سمع موعظةَ واعظ ازدراهُ بلسان حاله أو مقالِه، ولم تسمح له نفسه بالجلوس لسماع موعظته، ولو جلس لَمَا تأثر وانتفع، ولو كان الواعظ بليغًا صادقًا.

فاللَّهُمَّ أعذنا من علم بلا عمل وتقوى.

والموفق السعيد في الدنيا والآخرة ينعم بأنسين عظيمين: أنس العبادة، وأنس التعلّم والتعليم، ومن لم يأنس بهذين: لم يذق طعم الأنس في حياته ولو ذاق ما ذاق من أصناف الأكل، والتجول في أقطار الأرض، والمتاجرة بالأموال، وتبوّئ المناصب العالية، وغيرها من المتع الزائلة.

وإليك ـ أخي طالب العلم ـ بعض النصائح في باب العمل بالعلم، والدعوة إلى الله تعالى، والأدب والأخلاق، التي هي من أعظم واجبات طالب العلم.



١ «الرسوخ[١] الدينيّ ثلاثةُ أنواع»:

اعلم ـ وفقك الله ـ أنّ الرسوخ الدينيّ ثلاثةُ أنواع:

النوع الأول: **الرسوخ العلمي النظريّ**، وهذا الرسوخ سهلٌ وكثيرٌ أهلُه، وإنك تجد الكثير من طلاب العلم رسخوا في فنّ من الفنون؛ كالعربية والفقه والعقيدة والتفسير والحديث، وكثير منهم جمع بين هذه الفنون العلمية الشرعيّة.

حتى إنه قد كثر الرسوخ العلمي الشرعي في الكفار المستشرقين، وألفوا الكتب التي قد يعجز عنها كثير من علماء المسلمين.

النوع الثاني: **الرسوخ العمليّ الخُلُقي**، وهو أصعب من الأول، ولو قارنَّا بين كثرة الراسخين علميًّا والراسخين خلقيًّا، لوجدنا الفرق واضحًا جدًّا، ونسبة الرسوخ الأول أكثر بكثير، فهناك الكثير من العلماء وطلاب العلم؛ ولكن قلَّ من تجد منهم صاحب أخلاق عالية: كالصبر والاحتمال والكرم والشجاعة والبشاشة والرفق؛ لأنّ ليس هناك ما يدعو إلى العناية بالأخلاق الباطنة والظاهرة، ولا ما يحفز عليها، فلا وجود لمدارس تعلم الأخلاق وتمنح الشهادات والأموال والمناصب عليها، وليس هناك كذلك ما يحفز الإنسان في نفسه على ذلك؛ لأنه مشغول بالأمور الظاهر؛ كالعلم، أو الكسب، أو المنصب، أو اللهو.

---

(١) رَسَخ الشيء رُسوخًا، إذا ثبت في موضعه، والعلم يَرْسَخُ في القلب، وهو راسِخٌ في العلم: داخل فيه مدخلًا ثابتًا. [العين ٤/ ١٩٦].
فمادة (رَسَخَ) أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ، وَيُقَالُ رَسَخَ: ثَبَتَ، وَكُلُّ رَاسِخٍ ثَابِتٌ. [مقاييس اللغة ٢/ ٣٩٥].

وإنما يعتني بالأخلاق من علت همته، وكرمت عليه نفسُه، وطلب ما عند الله بصدق ويقين، وتمعن في الكتاب والسُّنَّة طلبًا للعلم والفهم والاقتداء التام بمن زكى الله خلقه ﷺ.

النوع الثالث: الرسوخ العمليّ الإيماني، وهو أصعبُ منهما وقليلٌ أهلُه، وقلّ من ذاق طعم الإيمان واليقين، وقوة التوكل، وحسن الرجاء، والحب العظيم لله تعالى، والأنس به، والفرح به، واللذة بمناجاته.

والله تعالى يُمكن من يشاء في الأول والثاني، ولا يمكن في الثالث إلا من أحبّه وقرّبه إليه، واصطفاه وأخلصه لنفسه.

والرسوخ العلمي يمكن تحصيلُه في زمن يسير، حتى إنَّ بعضهم رسخ في علمٍ من العلوم في ثلاثة أعوام فقط، وهكذا بقية العلوم، وبعضهم رسخ في علوم كثيرة في أقل من عشرة أعوام؛ لأن العلم له لذّة عجيبة، فلا يكاد من ذاقه ينفك عنه، وربما انشغل به عن الكثير من نوافل الطاعات، والدعوة إلى الله ونشر العلم.

بخلاف الرسوخ العملي الإيماني، فلا يرسخ فيه أحدٌ إلا بعد طول زمن، وكثرة عبادة، وعلمٍ بالله وبأسمائه وصفاتِه، وتدبّر لكتابِه، وصدق لجأ إلى الله، وطول ممارسة وصبرٍ وإلحاح وتعب ومجاهدة؛ لأنّ هذا يُخالف هوى النفس التي تميل إلى الدّعة والراحة، فلا يُمْكِن أن يذوق العبد حلاوة العبادة وطعم المناجاة والاستمتاع بطول القيام والوقوف بين يدي الله إلا بعد صبر ومصابرة وتغلّب على أهواء النفس.

ولذلك تكثر الانتكاسةُ في القسم الأول والثاني، أو التذبذبُ والتقلّب والفتور.

ولا يكاد يُوجد ذلك في القسم الثالث، فإن وُجد فيمن ظاهره

العبادة، وحب الخلوة بالله والزهد والخوف والرجاء: فلا يعني ذلك أنه قد رسخ في العمل والإيمان؛ فإن الإنسان قد يذوق شيئًا من طعم العبادة، ويُحبّب إليه العمل ببعض الطاعات، وليس كلامنا على هذا، فإن هذا من قسم العبّاد الذين قلّ علمهم، وكثرت مجاهداتهم على غير علم صحيح، وربما كانت حظوظ النفس حاضرة عندهم، فهم يتعبدون بما يجدون أنفسهم تميل إليه، فقد يضل كثير منهم أو ينتكس أو يبتدع.

وإنما كلامنا على صاحب الإيمان الصحيح، المبني على العلم بالله وبشرعِه، الذي لا حظ له إلا موافقة رضا ربّه.

والرسوخ معناه: الشيء الثابت القويّ، فإذا كان فيه تكلُّفٌ فليس رسوخًا.

فالرسوخ العلمي: عبارة عن قوةٍ علميّة في فنّ معيَّنٍ راسخة في النفس، بحيث يستطيع أن يفتي فيه بسهولةٍ وبلا تكلّف.

والرسوخ الخُلُقي: عبارة عن هيئة راسخة في النفس، تصدر الأفعال عنها بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكرٍ وروية.

والرسوخ الإيمانيّ: عبارة عن عقيدةٍ ثابتةٍ في النفس، تصدر العبادات عنها بسهولة ويسر، من غير تكلّف ومجاهدة.

وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة؛ لأن من يفتي في بعض المسائل لا يُقال عنه: عالم راسخ؛ بل باحث أو طالب علم، ما لم يكن كذلك في جلّ المسائل.

ومن يصدر منه بذل المال في النادر لحاجة عارضة، لا يقال: خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ.

ومن يقوم ببعض العبادات في بعض الأحوال لا يُقال عنه عابدٌ.

وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة؛ لأن من لا يفتي إلا بعد البحث والرجوع للكتب لا يُقال عنه: عالم راسخ؛ بل باحث أو طالب علم.

ومن يتكلف بذل المال، أو السكوت عند الغضب بجهد وتكلّف، لا يقال: خلقه السخاء والحلم.

ومن يتكلّف القيام بالعبادات على جهة المشقة والتعب لا يُقال عنه عابدٌ؛ لأن الرجل لا يكون عابدًا سبَّاقًا للخيرات على الدوام إلا إذا كان قلبه ممتلئ بالإيمان واليقين الراسخ، فيعبد الله تعالى بحبّ ورغبة وإقبال، فلا يشعر بالتعب والنصب إلا ما كان من طبيعة البشر.

وتكلف الأخلاق والتعلم والتعبّد يقود إلى الرسوخ فيها؛ فالحلم بالتحلّم، والعلم بالتعلّم، فهي أتعاب ومجاهدات في البدايات، لكنها لذائذ ورسوخ في النهايات، ومن لم يجاهد لن يرسخ ويقوى ويرتفع.

وإذا رسخ الإيمان في قلبك فأبشر بالفتوحات الربانية، والكرامات الإلٰهيّة، والدخول إلى الأنس بالله تعالى مِن أوسع أبوابه.

فاحرص ـ **يا طالب العلم** ـ على أن تكون راسخًا في هذه الأمور الثلاثة كلّها؛ لتكون من المفلحين الفائزين في الدنيا والآخرة.



٢ (طالب العلم ينبغي أن يسبق غيره إلى الطاعات):

طالب العلم ينبغي أن يسبق غيره إلى الصلاة وإلى صيام الاثنين والخميس أو ثلاثة أيام في كلّ الشهر على الأقل، وإلى قيام الليل قبل الفجر بساعة أو نصف ساعة على الأقل، وإلى ختم القرآن في الشهر مرة في أقل تقدير، وإلى سلامة القلب وطهارته، والتحلي بمكارم الأخلاق والرحمة والعفو والصفح والتماس الأعذار.

فإن سبقك غيرك إلى هذه الفضائل فما قيمة العلم الذي تحملُه؟

«فيا من كان له قلب فانقلب، يا من كان له وقت مع الله فذهب، قيام الأسحار يستوحش لك، صيام النهار يسأل عنك، ليالي الوصال تعاتبك عَلَى انقطاعك»[(١)].

فيا طالب العلم: كما ميّزك الله بالعلم، فلتتميّز بالعمل به؛ لتشرف وترتفع به في الدنيا والآخرة، وإلا أصبح العلم وبالا وحجةً عليك، واتّضعت من حيث طلبت الرفعةَ به.

وكما تحرص على التعلّم فاحرص على التعبّد ما دمت لم تترأس وتنشغل؛ فقلبك وذهنك في بداية الطلب في صفاء.

والاصطباغُ بصبغة العبادة حتى تكون من العابدين، الذين أثنى الله تعالى عليهم في القرآن وأَكْثَر مِن مدحهم، وحتى تكون العبادة روحك وقرة عينك: تحتاج إلى مجاهدة وصبر، وفراغ الخاطر من هموم الرئاسة والمناصب، فإذا لم تقو وأنت في سعةٍ وفراغ، فلا تكاد تقدر بعد ذلك ولو حرصت.

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب ٤/ ٨٩.

قال أحمد بن صالح: قال لي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أبا جعفر، تعبَّد من قبل أن ترأس؛ فإنك إنْ ترأست لا تقدر أن تتعبد.اهـ[(١)].

ولا يكاد يُعرف إمام في العلم إلا كان من أعبد الناس، وأحرصهم على نوافل العبادات.

فهذا أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان هو وامرأته وخادمه يتعقبون الليل أثلاثًا، يصلي هذا، ثم يوقظ هذا، ويصلي هذا، ثم يوقظ هذا[(٢)].

وهذا سعيد بن المُسيِّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: ما فاتَتْني الصلاةُ في جماعة منذ أربعين سنة.

وهذا الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جزَّأ الليل، فثُلُثُه الأول يكتُب، والثاني يُصَلِّي، والثالث ينام.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل كان يقرأ كل يومٍ سُبعًا، وكان ينام نومةً خفيفة بعد العشاء، ثم يقوم إلى الصباح يُصلي ويدعو.

وكان يقوم لِورده قريبًا من نصف الليل حتى يقاربَ السَّحَر.

وكان يتعجب ممن لا يحيي ليله ويقول: رجل يطلب العلْم لا يكون له ورْد بالليل؟[(٣)].

وهذا شيخ الاسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عنه البزار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كَانَ قد قطع جلّ وقته وزمانه فِيهِ ـ أي: العبادة ـ، حَتَّى إنه لم يَجْعَل لنَفسِهِ شاغلة تشغله عَن الله تَعَالَى مَا يُرَاد لَهُ، لَا من أهل وَلَا من مَال.

وَكَانَ فِي لَيْلَة متفردًا عَن النَّاس كلهم خَالِيًا بربه عَزَّ وَجَلَّ، ضارعًا

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر ٥١/ ٣٦٥.

(٢) رواه البخاري (٥٤٤١).

(٣) حياة السلف بين القول والعمل: ١٩٥، وما بعدها.

مواظبًا على تِلَاوَة الْقُرْآن الْعَظِيم، مكررًا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية.

وَكَانَ إذا أحرم بِالصَّلَاةِ تكَاد تتخلع الْقُلُوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فَإِذا دخل فِي الصَّلَاة ترتعد أعضاؤه، حَتَّى يميله يمنة ويسرة. اهـ[(١)].

وصلى الفجر مرة ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ويقول: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي. اهـ[(٢)].

وهذا تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول عنه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: لا أعرف في هذا العالم فِي زَمَانِنَا أَكْثَرَ عِبَادَةً مِنْهُ، وَكَانَتْ لَهُ طريقة في الصلاة يطيلها جِدًّا، وَيَمُدُّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، وَيَلُومُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، فَلَا يَرْجِعُ وَلَا يَنْزِعُ عَنْ ذَلِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ. اهـ[(٣)].

والأمثلة في ذلك كثيرة جدًّا.

فينبغي لطالب العلم أنّ يجتهد في القيام بالعبادات، وأن يُسارع إلى الطاعات، وأن يدرّب نفسَه عليها، فإن لم يُفتح له بابٌ من هذه الأبواب فلا يؤدّي به إلى ترك العلم؛ بسبب أنه لم يُفتح له هذا الباب مع بذل جهده ووسعه.

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية ص٣٨.
(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص٤٢.
(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٢٧٠.

٣ «الهدف الأول لطالب العلم: رضا الله تعالى»:

يجب أن يكون هدفك الأول ـ **يا طالب العلم** ـ رضا الله تعالى، وذلك بصلاح قلبك، وكثرة عبادة الله وشكره وذكرِه سبحانه.

ويكون هدفك الثاني: كثرة القراءة والبحث والحفظ، ونفع الناس، بنشر العلم والخير والبرّ.

وبعض طلاب العلم ـ هداهم الله ـ عكسوا ذلك؛ **فأدّى بهم ذلك إلى:**

أ ـ قسوة القلب.

ب ـ وحبّ التصدّر.

ت ـ وكثرة العلم بلا بركة.



٤ «تعظيم شأن الصلاة في قلب طالب العلم»:

طالب العلم الموفق في بداية طلبه للعلم يشعر بأنّ العلم هو ألذ شيء في حياته، ولا يجد شيئًا أمتع ولا ألذ منه، وغاية مراده إتقان العلم وفهمه والرسوخ فيه، ثم سيقوده العلم إلى العمل به، والقربِ مِن الله تعالى ومعرفته، والإقبال عليه، وذوقِ طعم اليقين، وأسعد أيامه يوم أن يذوق حلاوة اليقين بالله ربّ العالمين ـ، والتوكل عليه، وحلاوة العبادة، وخاصة صلاة الفريضة، حيث يبكر للصلوات قبل الوقت، فيشعر بعد ذلك بسعادة لا تضاهيها سعادة، وسيأتي عليه حال يقول فيها: إنْ كنت في الجنة كما أنا عليه الآن من السعادة والراحة والطمأنينة فأنا في عيش سعيد.

وطالب العلم الذي أمضى عدة أعوام في طلبه، وقد قرأ، وحفظ، وحضر مجالس العلم، ولا يحضر إلى الصلاة مع الأذان أو قبله، ولم تقرّ عينُه فيها، ولم يزدد في كلّ صلاةٍ إيمانًا، وأنسًا، ويقينًا، وحبًّا، ورجاءً، وخوفًا، وخشوعًا، وشوقًا إلى لقاء الله وجنته: فما قيمة العلم؟ وهل يُراد من العلم إلا العمل؟

فليراجع طالب العلم حاله مع صلاته، ولْيعلم أنه لن يصلح شأنه ويُمكّن وينفع الله به إلا إذا عظم قدر الصلاة في قلبه.

فاللَّهُمَّ أذقنا طعم الإيمان، ولذة الأنس بك، وحلاوة مناجاتك.



٥ (إذا سلكت طريق العلم وصبرت وصدقت: وصلت إلى الله تعالى):

إذا طلبت العلم بالطريقة الصحيحة التي سلكها أهل العلم الراسخون: سيُوصلك العلم إلى الله تعالى، وحبّه والأنس به، وحسن عبادته بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن العلم يدل على الله من أقرب الطريق إليه، فمن سلك طريقه ولم يعرج عنه وصل إلى الله.اهـ[1].

وسترى خواطرك واهتماماتِك تختلف كثيرًا عما كانت من قبل، حيث كانت خواطرك في بداية الطلب عن العلم والأخلاق والتعامل والتربية، وأما بعد أن تسلك الطريق الصحيح في العلم، فستضيف إلى ذلك العناية بالإيمان والقلب واليقين والتعلق بالله تعالى؛ لأنك كنت منكبًّا على العلم، والعلمُ سيقودك إلى معرفة ربك وعبادته والقرب منه، والأنس به.

فالعلم وسيلة لأعظم غاية ومقصود، وهو العبادة والطاعة، فمن قضى عمره في العلم ولم يذق طعم الإيمان وحلاوته ولذة العبادة والطاعة فما قيمة العلم؟

فاللَّهُمَّ أذقنا حلاوة الإيمان، ولذة العبادة.



(١) جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ٢/ ٢٩٨.

٦ «الشيطان قد يجد مدخلًا على المؤلف والمتكلم»:

الشيطان الرجيم قد يجد مدخلًا على المؤلف حينما يرى مؤلفاته تُباع ويتسابق الناس إلى اقتنائها، وقد يجد أيضًا مدخلًا على المتكلم حينما يرى الوجوه تنصرف إليه، ويرغب الناسُ في سماع حديثه، فربما أصابه الغرور من حيث لا يشعر.

فعليه بملازمة التضرع إلى الله تعالى والافتقار إليه، وعدم الاغترار بثناء الناس.

قال أحد طلاب العلم: وصلت إليّ يومًا مجموعةٌ من كتبي، وقد كنت في شوق عظيم لها، فجعلت أقلِّبها كما يقلب الفقير المديون ظرفًا فيه مليون ريال هدية من ملك أو أمير له، لا يكاد يصدق ما بين يديه.

ومكثت قرابة نصف ساعة وأن أقلِّبُها وأتصفحها، وأمتع عينيّ بالنظر إليها، ثم أخذتها وجعلتها في الرفّ الذي على يمين طاولتي، بجانب كتبي الأخرى، وقد بلغت ثمانية عشر كتابًا، وقد أخذت السعادة والفرحة فيّ كل مأخذ، وطار النوم عني، وقلت في نفسي:

كلّ هذه الكتب لي؟

كلها كتبتها وألفتها؟

كيف تمكنت من ذلك؟

كيف قدرتُ على تصنيف أكثر من فنّ؟

هل صنفت هذه الكتب لكثرة علمي وحدة ذكائي وهمتي وعزيمتي؟

هل أنا أفضل من الكثير من طلاب العلم من أقراني ومن سبقني بسبب كثرة مؤلفاتي؟

فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، والْتجأت إلى الله الرحمٰن الرحيم، وأجبت عن ذلك: بأنّ الفضل لله، وليس لذكائي ولا لعلمي، ولست أكثر علمًا من أقراني وزملائي، وكم ممن لم يكتب كتابًا واحدًا هو أعلم وأفضل عند الله مني.اهـ.

«وليس ما أعطاه الله لنبيِّنا محمد ﷺ من السؤدد والفضل يوم القيامة على جميع الأنبياء والرسل بعمله؛ بل بتفضيل الله إياه واختصاصه له»(١).

وهذا عمر الفاروق رضي الله عنه الذي هو من هو! يدخل عليه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو يتألم من تلك الطعنات التي طعنها المجوسي أبو لؤلؤة المجوسيّ ـ عليه من الله ما يستحق ـ في جسده الطاهر، فَقَالَ لَهُ وهو يُحاول أن يواسيه ويزيل جزعه: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَئِنْ كَانَ ذَاكَ، لَقَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ أَبَا بَكْرٍ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُ، ثُمَّ فَارَقْتَهُ وَهُوَ عَنْكَ رَاضٍ، ثُمَّ صَحِبْتَ صَحَبَتَهُمْ فَأَحْسَنْتَ صُحْبَتَهُمْ، وَلَئِنْ فَارَقْتَهُمْ لَتُفَارِقَنَّهُمْ وَهُمْ عَنْكَ رَاضُونَ.

فقَالَ عمر: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى مَنَّ بِهِ عَلَيَّ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ صُحْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَرِضَاهُ، فَإِنَّمَا ذَاكَ مَنٌّ مِنَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ مَنَّ بِهِ عَلَيَّ»(٢).

---

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢٥٤.

(٢) رواه البخاري (٣٤١٦، ٣٧٠٠).

فلم ينسب الفضل لنفسه، وهكذا الواجب على كلّ من منّ الله عليه بالعلم أو الجهاد أو العبادة ألا ينسب لنفسه الجهد والجد والفضل؛ بل ينسب ذلك إلى الله وحده، ويذكر أن الله تعالى يسر له الأسباب من الجد والحرص ونحو ذلك.

وطالب العلم الصادق ـ جعلنا الله كذلك ـ تتصاغر نفسُه عنده حينما يرى ثمار أعماله، ونتائج جهوده: من الكتب، أو الدروس، أو الثناء الحسن؛ لأنه على يقين أنّ هذا ليس من جهدِه، ولا من ذكائه، ولا من همَّتِه؛ بل هو محض فضل من الكريم الوهاب، ولم يهب له ربُّه هذا العطاء من بين كثير من الناس إلا ليبلوه أيشكر أم يكفر، وشكر الله على هذه النعمة العظيمة الجليلة أمرٌ ليس بالهيّن.

نسأل الله تعالى أنْ يُعِيْنَنا على شُكْر نِعَمِه التي نتقلَّب بها.



٧ «ليست قيمة الإنسان بكثرة مؤلفاتِه أو أتباعِه أو شرفِ منصبِه»:

مَن تتّبع كتبَ التراجم رأى أنّ كثيرًا من الناس كانت لهم مكانة كبيرة في أزمانهم، ولكثير منهم عشرات المصنفات؛ بل لبعضهم أكثر من مائة مصنف، وبعضهم كانت له المنزلة العالية والمراتب السنية، إما لكثرة أمواله، أو لعلوّ منصبه، أو لكثرة أتباعه وشهرتِه، وربما طغوا حتى تسلطوا على أهل العلم والخير، بالسجن أو القتل أو التضييق، وبعد موتهم بعشرات السنين لا تكاد تسمع لهم ذكرًا، ولا تجد لهم أثرًا، ولا لمصنفات من صنف وجود وشهرة ومكانة إلا ما شاء الله.

فكثرةُ المصنفات ليست دليلًا على علو مكانةِ صاحبِها عند الله تعالى، ما لم يكن صادقًا مخلصًا، فكلّ ما ليس لله يضمحل.

وهذا يُحتّم على طالب العلم ألا يلتفت إلى التباهي والغرور بالشهرة وكثرة مؤلفاته وأتباعه ومحبّيه، وكلّ هذا حتمًا سيزول بزوال صاحبه.



٨ «أخلاق طالب العلم»:

طلب العلم من أعظم أسباب نيل واكتساب حسن الخلق، ومن طلب العلم ولم يكتسب حسن الخلق والتواضع وهضم النفس فذاك لخلل في طلبه أو نيته وصدقه؛ وذلك لأنّ أعظم العلوم: العلم بالله، ودينه، وسُنَّة نبيّه ﷺ، ومن ازداد علمه بالله وعظمته وحقه عليه، وعلم بما أعده من الثواب للمتمسكين بشرعه، وبالعذاب لمن خالف أمره: فإنه سيزداد خوفًا منه، واحتمالًا للأذى لأجله، وسوف يسعى جاهدًا في التخلص من أمراض القلب والرياء والعجب ورؤية النفس والانتقام لها، وسيكون همُّه نصرةَ دين الله القويم، لا نصرة حظوظ نفسِه.

ومن عرف الله تعالى: عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم، وتقصيره في القيام بذلك، فلا يتسلل إلى قلبه هذا العجب ولا الغرور ولا الكبر.

لو اسْتحضر طالب العلم، أو الداعي إلى الله، أو العالم، أو الصالح، قبح ترفعه عن الخلق، وتثاقله في مشيته وحديثه، وعدم بشاشة وجهه: لأقلع عما كان عليه وكره صنيعه؛ فالناس لا يقتربون ولا يحبون من هذه أخلاقه وطباعه، وينظرون إليه نظرة ازدراء أو بغض، وأما صاحب البشاشة والتواضع واللين: فهو بذلك قد ملك قلوب الناس، وإذا حضر مجلسًا فرحوا به، ورحبوا به، وخرجوا من عنده منشرحةً صدورهم.

قيل لأحد حكماء العرب: ما لك تلقى العامة ببشر وترحيب؟

فقال: دفعُ ضغينةٍ بأخفّ مؤونة، واكتسابُ مودّةٍ بأهون مبذول.

وينبغي أن ترى - **يا طالب العلم** - الفضل لمن بادرك بالسلام، أو سألك عن مسألة، أو طلب منك رأيًا، أو شكا إليك همًّا، فافرح به، وأظهر له البشر، فهو يستحقّ ذلك، فقد اختارك من بين كثير من الناس، وهو يرى فيك القدوة الحسنة، فكن كذلك، وأبشر بالقبول والتوفيق.

فهذا حبر الأمة ابن عباس ﵄ يقول: ثلاثة لا أكافئهم: رجل بَدَأنِي بالسلام، ورجلٌ وسّع لي في المجلس، ورجل اغبرّت قدماه في المشي إليّ إرادة التسليم عليّ، فأما الرابع فلا يكافئه عنّي إلا الله جلّ وعزّ، قيل: ومن هو؟ قال: رجل نزل به أمرٌ فبات ليلَته يفكّر بمَنْ يُنزله، ثم رآني أهلًا لحاجته فأنزلها بي(١).

وبعض طلاب العلم - هداهم الله - يرون أنَّ سلام الناس عليهم من حقهم عليهم، وأنهم إنما سلموا عليهم يبتغون شرف السلام عليهم، وهم وإن لم يقولوا ذلك بلسان مقالهم، فلسان حالهم يشهد بذلك، حيث إنهم يردون السلام ببرود، ولا يظهرون البشر والفرح بسلام الناس عليهم، وهو من الكبر والترفع وسوء الخلق أعاذنا الله من ذلك.

ويُخشى على أمثال هؤلاء أن يكونوا عند أنفسهم عظماء، وعند الله تعالى محتقرين أذلاء، وقد استعاذ السلف الصالح من ذلك، قال عتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ ﵁: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا. رواه مسلم(٢).

قال ابن القيم ﵀: يَنْبَغِي للْعَبد أَن يستعيذ بِالله أَن يكون عِنْد نَفسه عَظِيمًا وَهُوَ عِنْد الله حقير. اهـ(٣).

---

(١) عيون الأخبار ٣/ ١٧٧.

(٢) (٢٩٦٧)

(٣) جلاء الأفهام ص٢٤٠.

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: أعوذ بالله من رؤية النفس ورؤية الخلق؛ فإن من رأى نفسه تكبر، والمتكبر أحمق؛ لأنه ما من شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه.

ومن راءى الخلق عبدهم وهو لا يعلم!

وقد رأينا من يرائي ولا يدري؛ فيمتنع من المشي في السوق، ومن زيارة الإخوان، ومن أن يشتري شيئًا بنفسه!

وقد كان بشر الحافي يجلس في مجلس عند العطار.

وأبلغ من هذا كله أن نبيَّنا ﷺ كان يشتري حاجته ويحملها.

وخرج علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو أمير المؤمنين إلى السوق، فاشترى ثوبًا.

وقد كان طلحة بن مصرف قارئ أهل الكوفة؛ فلما كثر الناس عليه، مشى إلى الأعمش فقرأ عليه، فمال الناس إلى الأعمش، وتركوا طلحة.

والمعاملة مع الله تعالى هكذا تكون.اهـ(١).

وإياك ـ **يا طالب العلم** ـ أن تغتر وتتكبر لأجل منصبك أو علمك أو جاهك؛ فالناس إنما يمدحون ـ غالبًا ـ الغنيّ لأجل ماله، والأمير أو الوزير لأجل منصبه، والوجيه لأجل وجاهته.

فلا تجعل مدح الناس لك سببًا في غرورك وتكبرك، ونفرتك من الناصحين.

وإياك أن يسبقك غيرك إلى السلام؛ بل بادر بالسلام على من مررت عليه، ومن جلس بجوارك في مسجد أو في أيّ مكان.

---

(١) صيد الخاطر: ٣١٣.

ومن القبيح أنْ «يتعزَّز طالب العلم بعزة العلم، ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام أو رد عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعةً عنده ويدًا عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يخدموه شكرًا له على صنيعه؛ بل الغالب أنهم يبرُّونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم»(١).

وما أجمل ما قاله ابن حزم رحمه الله: أقل مراتب العُجْب: أن تراه يتوقر عن الضحك في مواضعه، وعن خِفَّة الحركات وعن الكلام.اهـ(٢).

أي: أنّ من مراتب العُجب أنْ يتجنب الرجل الضحك في مواضعه، وحصول أسبابه، وأن يكون ثقيلًا في حركاته، وتنقلاته، والتفاته، متكلّفًا في كلامه، كاتمًا بعض مشاعره خوفًا من أن تكون سببًا في ذهاب هيبتِه.



(١) إحياء علوم الدين ٣/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) رسائل ابن حزم ١/ ٣٩٥.

٩ «طالب العلم الصادق أينما كان الخير والنفع وجدته»:

طالب العلم الصادق أينما كان الخير والنفع وجدته، فإن دُعي إلى إلقاء موعظة على مجموعةٍ قليلة أجاب، وإن دُعي إلى تعليم فتيةٍ صغار بادر، لا يبحث عن الكثرة ولا الشهرة، ولا يُبالي أكان الحضور وجهاء أم فقراء، مائةً أم خمسة، لا يشترط لنفع الناس شروطًا، يحمل همّ تبليغ الرسالة لا النتيجة، فما عليه إلا البلاغ، يرجو رضا الله لا رضا نفسِه وهواه، وحاله كحال ذاك المجاهد الصادق المخلص الذي قال عنه النبي ﷺ:

«**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعثَ رأسُه، مغبرةٍ قدماه، إن كان في الحراسة**[١] **كان في الحراسة، وإن كان في الساقة**[٢] **كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشَفَّع**». رواه البخاري[٣].

فلتكن همّك حينما تلقي كلمة أو درسًا أنْ ترضي ربك وتبرئ ذمتك، ولو لم يحضر عندك إلا القليل من الناس.

ولا تهتمّ بما يُقال عنك إذا نصحت واجتهدت في تحسين أدائك وأسلوبك، وبذلتَ وُسعَك في البحث والتحقق من الكلام الذي ستقولُه وتكتبه، ولو أخطأت بعد ذلك فلا عليك، فالله تعالى قد عذرك ولن

---

(١) أي: جُعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو.
(٢) أي: مؤخرة الجيش.
(٣) (٢٨٨٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يُؤاخذك؛ بل سيأجرك ـ إن أخصلت وصدقت ـ، فَلِمَ يضيق صدرك بمؤاخذة المخلوق، والخالق لن يؤاخذك؟

ولِمَ تحزن لعدم الْتماس العذر لك من بعض المخلوقين، والمعبودُ الحقُّ قد عذرك؛ بل وآجرك؟



١٠ «وجوب تزكية العلم والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة»:

لقد توعّد الله تعالى بوعيد شديد لمن كنز المال ـ الذي هو قوام البدن ـ وحرمه الناس، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

فكيف بمن يكنز العلم الذي هو قوام الروح؟

فكن على حذر شديد ـ يا طالب العلم ـ من عدم تزكية علمك، والسعي الحثيث في نشره بكلّ ما تستطيع وتقدر عليه.

والله تعالى يصطفي من يشاء، ويمن على من يشاء، ومن أعظم نعمه على عبده أن يشرفه بحب العلم وفهمه والصبر عليه.

وجميع ما يتقلب فيه من خيري الدنيا والدين: هو نعمة محضة من الله تعالى بلا سبب سابق يوجب له حقًّا، ولا حول ولا قوة له من نفسه إلا به.

والله سبحانه هو خالقُ نفسه، وخالقُ أعماله الصالحة، وخالقُ الجزاء.

وإلهامُه الإيمان، وهدايتُه إليه، وتخصيصُه بمزيد نعمةٍ حصل له بها: هو من نعمته، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٩].

وإذا كان كذلك: وجب عليك ألا تكتم وتبخل بهذه النعمة وتمنعها غيرك، فنعمة العلم ليست من محض كسبك، وخالص ذكائك، فيجب عليك أن تتصرف فيها بحسب ما يراه من أسدى إليك هذه النعمة، وهو الله تعالى، وذلك بالعمل به ونشره.



١١ (الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا معلمين ومفتين فقط؛ بل كانوا كذلك مربين للناس بمخالطتهم ونصحهم وغشيان مجالسهم)

إذا أردت ـ يا طالب العلم ـ أن تقتدي بالأنبياء عليهم السلام: فلا تقتصر على ما ورّثوا من العلم فقط؛ بل عليك أن تأخذ بما ورّثوا من علم، وعمل، وتربية، وأخلاق، وتعامل، وحرص على نصح الناس، والصبر عليهم، والحلم عن المسيئ منهم، ومخالطتهم في الخير، والسعي في جمعهم على البر والتقوى.

فلم يكن الأنبياء عليهم السلام يجلسون في مساجدهم للتعليم، ويصدرون الفتاوى فقط؛ بل كانوا يخرجون للناس ويدعونهم، ويربونهم، ويخالطونهم، فوضع الله ـ تبارك وتعالى ـ لهم القبول، وجعلهم أفضل من غيرهم، ولو كان غيرهم أكثر من بعضهم أتباعًا وشهرة.

فالأنبياء عليهم السلام لم يكونوا معلمين ومفتين فقط؛ بل كانوا مع ذلك مربين للناس بمخالطتهم ونصحهم وغشيان مجالسهم للدعوة إلى الله، والتذكير، والنصح، صابرين على تعليم جاهلهم، وأذى أحمقهم.

قال العلامة السعدي في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: ٧٩]؛ أي: علماء حكماء حلماء معلمين للناس، ومربيهم بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرون بالعلم والعمل والتعليم. اهـ.

فمن غفل من طلاب العلم والعلماء والدعاة إلى الله والخطباء عن جانب التربية والنصح ومخالطة الناس لأجل النفع والصلة ونشر الخير

وتقليل الشر: فقد فاته جانبٌ عظيمٌ من مهمات الأنبياء ﰈ، وكان تفريطُه هذا داعيًا إلى تمرد بعض الناس، واندثار معالم الشريعة، وانتشار المعاصي.

فكثير من الناس ـ إن لم يكن أكثرهم ـ لن يستقيموا على الدين ويثبتوا على الحق ويتركوا المنكر بسبب وجود المعلمين والعلماء؛ بل لأجل وجود من يربيهم، ويخالطهم، ويعاملهم بالحسنى، من الناصحين من العلماء وطلاب العلم وأهل الخير.

فموسى ؑ حينما ترك قومه أيامًا قليلة عبدوا العجل وأشركوا بالله، مع أنّ هارون أخاه ؑ كان معهم يعلمهم وينكر عليهم، ونبيُّنا ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يُعَلِّم، ويربي، وينصح، ويذكر، ويخالط الناس، ويتألف قلوبهم، ويصبر على أذاهم، ويحلُم عن سفيههم.

فما أحوج الأمة إلى المربين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر بالكلمة الطيبة، والقدوة الحسنة، والأسلوب اللطيف.

❁ ❁ ❁

١٢ «طالب العلم خادم في سبيل الله»:

طالب العلم هو في الحقيقة خادم لدين الله تعالى، وخادم طلاب العلم وغيرهم، بتوصيل العلم لهم، ورحمتهم، وتحبيبهم لله، وتحبيب الله لهم.

وإذا استشعر طالب العلم أنه خادم في سبيل الله: تواضع وهضم نفسه، ولم يجد في نفسِه منّةً ولا تَفَضُّلا على أحد.

فهذا العالم الإمام، شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الذي بلغ الإمامة في الدين، وأذل الله به أنوف المارقين، وجاهد بسنانه الكفار والمنافقين، وصدع بالحق أمام الأمراء والوزراء، ولم تأخذه في الله لومة لائم، ومع ذلك كان يرى نفسه خادمًا للمسلمين، فقد أرسل رسالة لأحد أمراء الجيش الإسلامي جاء فيها: وكتب الخادم في ذلك.. والخادم خادم لخدمتكم.. فأنتم الرأس وغيركم جسد من الأجساد، وأنتم العين وغيركم السواد..

وكتب رسالةً لأحد أقرانه القضاة جاء فيها: وقد كتب الخادم في ذلك..

بل ووصف نفسه بأنه مملوكٌ فقال: من المملوك أحمد ابن تيمية إلى قطب الدين..

والمملوك يسلم على من تحيط به العناية..[1]

فالشيخ يهضم ويذلّ نفسه في الله، ولمصلحة الإسلام، وقد

(١) يُنظر: جامع المسائل ٩/٦٥، ٧٧، ٢٥٧.

قال رَحِمَهُ اللهُ: مَن أَذَلَّ نَفْسَهُ للهِ فَقَد أَعَزَّهَا. اهـ[١].

وكانَ رَحِمَهُ اللهُ «يدني الْفَقِير الصَّالح ويكرمه، ويؤنسه ويباسطه بحَديثه المستحلى، زِيَادَةً على مثله من الأغنياء، حَتَّى إنه رُبمَا خدمه بِنَفسِهِ، وأعانه بِحمْل حَاجته؛ جبرًا لِقَلْبِهِ، وتقربًا بذلك إلى ربه»[٢].

فيا طالب العلم، ابْذُلْ نفسك لله وفي سبيل الله، واجْتَهِدْ في خدمة الناس بقلمك ولسانك وجاهك، وتخلصّ من التباهي بالأوصاف التي يتباهى بها كثير من الناس وخاصة من المنتسبين للعلم، حينها يرفعك الله بصدقك وإخلاصك وتواضعك.

والناس لن يحتاجوا إلى شهاداتك؛ بل يحتاجون إلى طيب تعاملك، ولن يحتاجوا إلى كثرة كلامك؛ بل يحتاجون إلى حسن فعالك.



(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٢٧.

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزَّار ص٥٠.

١٣ «طالب العلم المخلص الموفق هو الذي يهتم بنفع الناس، ورحمتهم، وتحفيزهم»

اعلم - أخي طالب العلم الموفق - أنّ إحسانك للناس بالتعامل الحسن، وبذل العلم بصدر رحب، والبشاشةَ في وجوههم: أمرٌ متحتّم عليك، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]: إسلامُ وجهه كما قاله أئمة التفسير: هو إخلاص دينه وعمله لله، والإحسان هو فعل الحسنات؛ فاجتمع له أن عمله خالص، وأنه صالح.

وإذا كان الله قد شرط في مَن له أجرُه عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون أن يكون محسنًا مع إسلام وجهه لله: دلَّ بذلك على أن الإحسان شرط في استحقاق هذا الجزاء، وهذا الجزاء لا يقف إلا على فعل الواجب؛ فإنَّ كل من أدى الواجب فقد استحق الثواب، ودرأَ العقاب، **وذلك يدل على أن الإحسان واجب،** وقد قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، والأمر يقتضي الوجوب.

وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التوبة: ٩١]، ومن فَعلَ الواجبَ فما عليه من سبيل، إنما السبيل على من أساء بتركِ ما أُمِرَ به، أو فِعْلِ ما نُهِيَ عنه.

وفي «الصحيح»[١] عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله كتبَ الإحسانَ**

---

(١) مسلم (١٩٥٥) عن شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

على كل شيء، فإذا قتلتم فاحسِنوا القِتْلةَ، وإذا ذَبحتم فاحسِنوا الذِّبحةَ»، ففي هذا الحديث أن الإحسان واجب على كل حال، حتى في حال إزهاق النفوس، ناطقها وبهيمتها، فَعَلَّمَهُ أن يُحْسِن القتلةَ للآدميين، والذبحة للبهائم.

والإحسان الواجب هو فعل الحسنات، وهو أن يكون عمله حسنًا، ليس المراد بذلك فعل الإحسان التطوع.

وهذا الإحسان في حق الله، وفي حقوق عباده:

- فأما في حق الله: ففعل ما أمره به.

- وأما في حق عباده: ففعل ما أوجب لهم من الإحسان، وترك ما لا يجوز من الإساءة. اهـ[1].

فإحسانك ببذل العلم، وحسن التعامل، واهتمامك بمن يسألك ويستفتيك ويطلب منك مساعدته في إصلاح دينه: أمرٌ واجبٌ عليك، وهو دليل على وجود الرحمة في قلبك، والراحمون يرحمهم الرحمٰن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: على الإنسان أن يكون مقصودُه نفعَ الخلق، والإحسانَ إليهم مطلقًا، وهذا هو الرحمة التي بُعث بها محمد ﷺ في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والرحمةُ: يحصل بها نفع العباد، فعلى العبد أن يقصد الرحمة والإحسان والنفع. اهـ[2].

وقد ذكر لي رجلٌ بأنه ذهب لأحد طلاب العلم فطلب منه أن يعينه

(١) جامع المسائل، لابن تيمية ٦/ ٢٦ ـ ٣٤.

(٢) جامع المسائل، لابن تيمية ٦/ ٢٦ ـ ٣٤.

على فهم بعض المسائل التي يُحسنها، فرفض بحجة أنه مشغول بالبحوث والتأليف!

وذهب آخر إلى أحد طلاب العلم ممن له مكانةٌ وشهرةٌ، فبشّره بأنه بدأ يطلب العلم، وأنه أصبح يخطب خطب الجمعة، ويلقي بعض الدورات التي فيها منفعة، فلم يكترث بذلك، ولم يحفّزه، ولم ير منه أيّ تفاعل تجاهه!

وذهب أحد طلاب العلم إلى طالب علم قد سبقه في الطلب، فطلب منه أن يعطيه رأيه في بحثٍ أعدّه، وأن يرشدَه وينصحَ له، فرفض ذلك، وجاءه بعد ذلك وقد طبع بحثه فأهداه له فلم يكترث بذلك ولم يُحَفِّزْه!

قال: فضاق صدري، وتعجبت من عدم اكْثراثه لي وقد أتيته مرة طالبًا المساعدة، ومرةً مبشرًا!

فأين الإحسان، وأين الرحمة، وأين حبُّ الخير للغير؟

إنَّ هؤلاء ونحوهم إنما جاؤوا راغبين في العلم والتعلّم، والدَّعم والتَّحفيز، فحقّهم أن يُعانوا، ويهتمّ بهم، لا أن يردّوا.

ووالله إنّ مساعدة هؤلاء، والوقوف معهم، وصناعة الإبداع والهمّة في نفوسهم: خيرٌ من العكوف لساعات مع الكتب بحثًا أو تأليفًا، وصناعةُ طالب علم حاذق قد يكون خيرًا من تأليفِ عشرات الكتب، وإلقاء العشرات من المحاضرات والدروس.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى على كثرة أشغاله ومؤلَّفاته، وطلابه وأحبابه، وخصومه وأعدائه، وجهاده بلسانه ويده، إلا إنه كانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ «لَا يسأم مِمَّن يستفتيه، أَو يسْأَله؛ بل يُقْبل عَلَيْهِ ببشاشةِ

وَجه، ولين عَرِيكَة، وَيقف مَعَه حَتَّى يكون هُوَ الَّذِي يُفَارِقهُ، كَبِيرًا كَانَ أَو صَغِيرًا، رجلًا أَو امْرَأَة، حرًّا أَو عبدًا، عَالِمًا أَو عاميًّا، وَلَا يَجْبَهْه[(١)]، وَلَا يُحْرِجْه، وَلَا ينفِّره بِكَلَام يوحشه؛ بل يجِيبه، ويفهمه، ويعرفه الْخَطَأ من الصَّوَاب بلطفٍ وانبساط»[(٢)].

وهذا تلميذُ العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول عنه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ، كَثِيرَ التَّوَدُّدِ، لَا يَحْسُدُ أَحَدًا، وَلَا يُؤْذِيهِ، وَلَا يَسْتَعِيبُهُ، وَلَا يَحْقِدُ عَلَى أَحَدٍ»[(٣)].

وكان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: لَيْسَ لِلْقَلْبِ أَنْفَعُ مِنْ مُعَامَلَةِ النَّاسِ بِاللُّطْفِ. اهـ[(٤)].

فارفق ـ **يا طالب العلم** ـ بالناس، وتواضع لهم، وتودّد لهم، واصبر على أذاهم، وخاصةً طلابك الذين جاؤوا ليستفيدوا من أخلاقك وأدبك قبل علمك.

فكم مِن شيخ صنع طالب علم حمل رايته، ونشر علمه، وبذل واجتهد ونفع الأمة أكثر من نفع شيخه، وانتفع الناس بكتبه أكثر من كتب شيخه!

فما أجمل أنْ تشكر الناس على محاسن أعمالهم، ولو لم تجن منها فائدةً لنفسك، فهذا الخُلُقُ لا يتخلق به إلا النفوس الشريفة، كيف وقد سمى الله تعالى نفسه شاكرًا! فقال: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

---

(١) أي: لم يستقبله بكلام فيه غِلَظ وجفاء.
(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزَّار ص٥٠.
(٣) البداية والنهاية ١٤/ ٢٧٠.
(٤) مدارج السالكين بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ ٢/ ٤٧٨.

[البقرة: ١٥٨]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧].

قال العلامة محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالنُّكْتَةُ فِي اخْتِيَارِ هَذَا التَّعْبِيرِ تَعْلِيمُنَا الْأَدَبَ، فَقَدْ عَلَّمَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَذَا أَدَبًا مِنْ أَكْمَلِ الْآدَابِ، بِمَا سَمَّى إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ عَلَى الْعَامِلِينَ شُكْرًا لَهُمْ، مَعَ أَنَّ عَمَلَهُمْ لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَدْفَعُ عَنْهُ ضُرًّا، فَيَكُونُ إِنْعَامًا عَلَيْهِ وَيَدًا عِنْدَهُ، وَإِنَّمَا مَنْفَعَتُهُ لَهُمْ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَيْهِ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ، فَهَلْ يَلِيقُ بِمَنْ يَفْهَمُ هَذَا الْخِطَابَ الْأَعْلَى، أَنْ يَرَى نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَهُوَ لَا يَشْكُرُهُ وَلَا يَسْتَعْمِلُ نِعَمَهُ فِيمَا سِيقَتْ لِأَجْلِهِ؟ ثُمَّ هَلْ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَرَى بَعْضَ النَّاسِ يُسْدِي إِلَيْهِ مَعْرُوفًا، ثُمَّ لَا يَشْكُرُهُ وَلَا يُكَافِئُهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ فَوْقَ صَاحِبِ الْمَعْرُوفِ رُتْبَةً وَأَعْلَى مِنْهُ طَبَقَةً؟ فَكَيْفَ وَقَدْ سَمَّى اللهُ تَعَالَى إِنْعَامَهُ عَلَى مَنْ يُحْسِنُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَإِلَى النَّاسِ شُكْرًا، وَاللهُ الْخَالِقُ وَهُمُ الْمَخْلُوقُونَ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ الْمُعْوِزُونَ؟.

فتَرْكُنَا شُكْرَ النَّاسِ وَتَقْدِيرَ أَعْمَالِهِمْ قَدْرَهَا، سَوَاءٌ كَانَ عَمَلُهُمُ النَّافِعُ مُوَجَّهًا إِلَيْنَا أَوْ إِلَى غَيْرِنَا مِنَ الْخَلْقِ، فَهُوَ جِنَايَةٌ مِنَّا عَلَى النَّاسِ وَعَلَى أَنْفُسِنَا؛ لِأَنَّ صَانِعَ الْمَعْرُوفِ إِذَا لَمْ يَلْقَ إِلَّا الْكُفْرَانَ، فَإِنَّ النَّاسَ يَتْرُكُونَ عَمَلَ الْمَعْرُوفِ فِي الْغَالِبِ، فَنُحْرَمُ مِنْهُ، وَنَقَعُ مَعَ الْأَكْثَرِينَ فِي ضِدِّهِ فَنَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ..

ثُمَّ إِنَّ كُفْرَانَ النِّعَمِ، لَابُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِي نَفْسِ مَنْ عَسَاهُ يُوجَدُ مِنْهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَثَرُهُ تَرْكَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ، كَانَ الْفُتُورَ فِيهِ..

كَذَلِكَ الشُّكْرُ يُؤَثِّرُ فِي إِنْهَاضِ هِمَّةِ أَعْلِيَاءِ الْهِمَّةِ، مِنَ الْمُخْلِصِينَ فِي

أَعْمَالِهِمْ، الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عَلَيْهَا جَزَاءً وَلَا شُكُورًا؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ عَمَلَهُمُ الْخَيْرَ نَافِعًا فَيَزِيدُونَ مِنْهُ، كَمَا أَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْهُ ضَائِعًا يَكُفُّونَ عَنْهُ. اهـ[١].

وهاهو القائد الأعظم، والرسول الأكرم، الذي كسب بقيمه الرجال، وصنع بأخلاقه وتشجيعه الأبطال، يُثني ويشكر الناس على محاسن أعمالهم، وفضائل أفعالهم.

فقد كان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتلمَّس الصفات الحسنة والمواهب الجليلة في أصحابه، فيبرزها ويشكر أصحابها عليها.

فقد نظر في صفاتِ وأخلاقِ أبي بكر رضي الله عنه فرأى من أعظمها وأبرزها: حبَّه للنبي ﷺ وتضحيته له فقال عنه: «**إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ**»[٢].

ونظر صفاتِ وأخلاقِ عمر رضي الله عنه فرأى من أعظمها وأبرزها: قوتَه في الحق، فقال عنه: «**إِيهًا يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ**»[٣].

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ عثمان رضي الله عنه فرأى من أعظمها وأبرزها: الحياءَ، فقال عنه: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»[٤].

(١) تفسير المنار ٢/ ٤١ ـ ٤٢.
(٢) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٣) رواه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).
(٤) رواه مسلم (٢٤٠١).

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ عليّ رضي الله عنه فرأى من أعظمها وأبرزها: حبَّه لله وسوله، وحبَّ الله ورسولِه له، فقال عنه: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»(١).

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ أبي هريرة رضي الله عنه فرأى من أعظمها وأبرزها: حِرْصه عَلَى طلب الحَدِيثِ فقال عنه ـ حينما سأله عنْ أَسْعَدِ النَّاسِ بِشَفَاعَتِه يَوْمَ القِيَامَةِ ـ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ**»(٢).

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ خالد بن الوليد رضي الله عنه فرأى من أعظمها وأبرزها: إقدامَه وبسالته في الجهاد، فقال عنه: «**سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ**»(٣).

ونظر في صفاتِ وأخلاقِ أحد أصحابه فرأى من أعظمها وأبرزها: الْحِلْم، وَالْأَنَاة، فقال عنه: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْم، وَالْأَنَاة**»(٤).

وقال عن فاطمة رضي الله عنها: «**سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ**»(٥).

وقال عن ابن مسعود رضي الله عنه: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»(٦).

---

(١) رواه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٤).
(٢) رواه البخاري (٩٩).
(٣) رواه البخاري (٣٧٥٧).
(٤) رواه مسلم (١٧).
(٥) رواه البخاري (٦٢٨٥)، ومسلم (٢٤٥٠).
(٦) رواه الإمام أحمد (٣٥)، وابن ماجه (١٣٨).

وقال لأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه: «**لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»[(١)].

وَقَالَ لِجَعْفَر بن أبي طالب رضي الله عنه: «**أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي**»[(٢)].

ولذلك: خرج جيلٌ قاد الأمم، ووصل في سموّ أخلاقه وهمّته إلى أعلى القمم، وفتحوا البلاد شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا.

فإذا أردت أن تصنع من طلابك قادةً أذكياء نجباء، وأن ترفع همم وعزائم مَن حولك من الأصدقاء والأقارب والأهل حتى تناطح السحاب: فتلمَّس الصفات الحسنة فيهم، وأبرزْها واشكرهم عليها، واجتهد في تطويرها وثباتها.

فربما كانت في أحدهم صفة عظيمة لم يُلْق لها بالًا، ولكن حينما تبرزها وتذكرها له، وتشكره عليها: يلتفت إليها، ويبدأ في تطويرها والعناية بها، حتى ينتفع بها هو وغيره انتفاعًا عظيمًا.

وهذا من أعظم المعروف الذي جاءت الشريعة بالحث عليه، قال النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلِق**». رواه مسلم[(٣)].

فلا تحتقر كلمةً تبذلها لأخيك؛ تحمل في طياتها تحفيزًا على خير، وتنبيهًا على صفة وخلق عظيم؛ فربما أجرى الله تعالى خيرًا كثيرًا من جرّاء هذه الكلمة.

فقد ألّف البخاري «صحيحه» بسبب كلمةٍ سمعها من شيخِه إسحاقَ بن راهويه حين قال: «لو أن أحدكم يجمع كتابًا فيما صح من

---

(١) رواه مسلم (٨١٠).
(٢) رواه البخاري (٢٦٩٩).
(٣) (٢٦٢٦).

سُنَّة الرسول ﷺ» قال البخاري: «فوقع ذلك في نفسي» فألّف كتابه الصحيح الذي هو أصح كتاب على وجه الأرض بعد كتاب الله.

وانصرف إمام المحدثين في زمانه الحافظُ الذهبي لعلم الحديث بسبب كلمةٍ سمعها من شيخه البرزالي، قال الذهبي رحمه الله عن شيخه البرزالي: «هو الذي حبّب إليّ طلب الحديث، فإنه رأى خطي، فقال: خطّك يشبه خط المحدثين! فأثّر قوله فيّ». اهـ(١).

واسأل نفسك **يا طالب العلم**: متى رأيت صفة في أحد من الناس فمدحته عليها؟

فهل يعقل أنَّ من حولك ومن تخالطهم لا تُوجد عندهم صفات وأخلاق بارزة؟ هذا لا يعقل.

وإن كنت ترى وتكتم، فهو عيب فيك، وقد يدل على حسد في القلب.

فينبغي عليك أن تتلمّس فيمن حولك من أقارب، وأولاد، وأصدقاء، وطلاب، الصفات الحسنة، والقيم النبيلة، فتبرزها لهم، وتشكرهم عليها.



(١) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام، للذهبي ص٤٠.



الخاتمة

هذا ما تيسر جمعه وطرحه؛ رغبةً في استنهاض همم طلاب العلم، بذكر بعض التجارب والقواعد والنصائح، التي قد تكون سببًا بإذن الله تعالى في نفعهم.

وطالب العلم إذا تعلّم لأجل العمل، وسعى بقدر استطاعته في نشر العلم: كان مباركًا أينما كان، كما ذكر الله ﷻ عَن الْمَسِيح ابن مريم ﷺ أنه قَالَ: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١] قَالَ سُفْيَان بن عُيَيْنَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ قَالَ: معلمًّا للخير.

«وَهَذَا يدلُّ على أنّ تَعْلِيم الرجل الْخَيْر هُوَ الْبركَة الَّتِي جعلهَا الله فِيهِ؛ فَإِن الْبركَة حُصُول الْخَيْر ونماؤه ودوامه، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَة لَيْسَ إِلَّا فِي الْعلم الْمَوْرُوث عَن الأنبياء وتعليمه، وَلِهَذَا سمى سُبْحَانَهُ كِتَابه مُبَارَكًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وَقَالَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ [ص: ٢٩]، وَوصف رَسُوله بِأَنَّهُ مبارك، كَمَا فِي قَول الْمَسِيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، فبركة كِتَابه وَرَسُوله هِيَ سَبَب مَا يحصل بهما من الْعلم وَالْهدى والدعوة إلى الله»(١).

أسأل الله العظيم أن يرزقنا علمًا نافعًا، يكون لنا يوم القيامة

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ١/ ١٧٤.

شافعًا، وأن يغفر زلاتنا، ويقبل توباتنا، ويقيل عثراتنا، إنّ ربي رحيم ودود، قريب مجيب، وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفنّ الأول: **القراءة الجادّة المثمرة**	٧
١ ـ «الإخلاص في طلب العلم»	٨
٢ ـ «العلم بالله ﷻ أجلّ العلوم وأهمها وأولاها بالعناية والقصد»	١٢
٣ ـ «الفرق بين محبّ العلم وبين طالب العلم»	١٨
٤ ـ «العناية بكتاب الله تعالى حفظًا وتدبّرًا، ثم العناية بالصحيحين»	٢٠
٥ ـ «طريقة مجربة لضبط القرآن»	٢٢
٦ ـ «مقاصد من قرأ كتابًا في التفسير»	٢٥
٧ ـ «كتب مقترحة لطالب العلم»	٢٦
٨ ـ «أنواع قرّاء العلوم النافعة»	٣١
٩ ـ «كيف يعرف القارئ أنه جادّ في القراءة؟»	٣٣
١٠ ـ «قراءة الكتاب لأكثر من مرة: أهم من قراءة كتاب جديد»	١٠
١١ ـ «أقسام الناس بالنسبة للعقل والعلم»	٣٨
١٢ ـ «لذة العلم»	٤١
١٣ ـ «قراءةَ الكتبِ الْمُطوّلةِ بمنهجية صحيحة من أعظم المتع»	٤٣
١٤ ـ «لفتةٌ حول قراءة المطولات من كتب أهل العلم»	٤٤
١٥ ـ «علاقة طالب العلم الصادق مع نفْسِه ومع غيرِه»	٤٧
١٦ ـ «وطّن نفسك على أن تُعلّم وتَتعلّم، وتنصح وتُنصح، وتنقد وتُنقد»	٦٤
١٧ ـ «الأولى لطالب العلم ألا يقف عند حدٍّ معيّنٍ في طلب العلم»	٦٥
١٨ ـ «مراحل العلم»	٦٦

الموضوع | الصفحة

١٩ ـ «الحدة التي يُواجهها الطالب في بداية الطلب من بعض مشايخه تفيده بعد ذلك» ٦٨
٢٠ ـ «النظرة الصحيحة لقوة الحفظ وللحفاظ» ٦٩
٢١ ـ «أقسام الناس بالنسبة للحفظ والفهم» ٧٣
٢٢ ـ «تذكر دائمًا حالتك قبل اشتغالك في طلب العلم» ٧٧
الفنّ الثاني: **التصانيف النافعة..** ٧٩
١ ـ «أربعة أمور تُساعد على الكتابة والتصنيف» ٨٠
٢ ـ «المنهجيّةُ الصحيحةُ في العنايةِ بالكتابة والتأليف» ٨٨
٣ ـ «فوائد التصنيف» ١٠٢
٤ ـ «التصنيف في وقت مبكر» ١٠٧
٥ ـ «أسباب القدرة على التصنيف والقراءة والبحث» ١١٢
٦ ـ «الحذر من مرضين خطيرين: رغبة الكمال والتراخي والتسويف» ١١٤
٧ ـ «لكل أهل زمان ما يناسبهم من الكتب» ١١٩
٨ ـ «التهذيب والاختصار من أنواع التأليف النافع» ١٢٠
٩ ـ «فوائد اختصار الكتب» ١٢١
١٠ ـ «طريقة سهلة نافعة في الاختصار» ١٢٢
١١ ـ «فوائد تقييد الخواطر» ١٢٦
١٢ ـ «أهميّة البحث والترجيح لطالب العلم» ١٣٢
١٣ ـ «كيف يصنف فلانٌ من الناس الكتب، وفيهم من هو أعلم منه ومع ذلك لم يؤلفوا» ١٣٥
١٤ ـ «كيف استطاع المؤلف الصبر على مرّ التأليف» ١٣٧
الفن الثَّالث: **«العمل بالعلم وتعليمُه، والتأدّب بآدابِه»** ١٣٩
١ ـ «الرسوخ الدينيّ ثلاثة أنواع» ١٤٣
٢ ـ «طالب العلم ينبغي أن يسبق غيره إلى الطاعات» ١٤٧
٣ ـ «الهدف الأول لطالب العلم: رضا الله تعالى» ١٥٠

الموضوع | الصفحة

٤ ـ «تعظيم شأن الصلاة في قلب طالب العلم» ١٥١
٥ ـ «إذا سلكت طريق العلم وصبرت وصدقت: وصلت إلى الله تعالى» ١٥٢
٦ ـ «الشيطان قد يجد مدخلًا على المؤلف والمتكلم» ١٥٣
٧ ـ «ليست قيمة الإنسان بكثرة مؤلفاتِه أو أتباعِه أو شرفِ منصبِه» ١٥٦
٨ ـ «أخلاق طالب العلم» ١٥٧
٩ ـ «طالب العلم الصادق أينما كان الخير والنفع وجدته» ١٦١
١٠ ـ «وجوب تزكية العلم والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة» ١٦٣
١١ ـ «الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا معلمين ومفتين فقط؛ بل كانوا كذلك مربين للناس بمخالطتهم ونصحهم وغشيان مجالسهم» ١٦٥
١٢ ـ «طالب العلم خادم في سبيل الله» ١٦٧
١٣ ـ «طالب العلم المخلص الموفق هو الذي يهتم بنفع الناس، ورحمتهم، وتحفيزهم» ١٦٩
الخاتمة ١٧٩
الفهرس ١٨١

طُبِعَ لِلْمُؤَلِّفِ

١ ـ إرْشادُ السَّاجِدِ بأسْبابِ الخِلَافِ والتَّقاطُعِ في الْمَسَاجِدِ.
٢ ـ الْإِفَاضَةُ في أَحْكَامِ الْحَيْضِ والنِّفَاسِ والْاسْتِحَاضَةِ.
٣ ـ حَيَاةُ السَّلَفِ بَيْنَ الْقَوْلِ والْعَمَلِ. (الطبعة الثالثة).
٤ ـ بُيُوتٌ تَئِنُّ مِنَ الْمَشاكِلِ والْخلافَاتِ، الأسْبَابُ والْعِلَاجُ.
٥ ـ حُقُوقُ الصَّدِيْقِ وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ.
٦ ـ كَيْفَ تُرَبِّيَ أَبْنَاءَكَ؟ ثَلَاثُونَ قَاعِدَةً تُوصِلُكَ إلى أحْسَنِ وأَنْجَحِ الطُّرُقِ فِي التَّرْبِيَةِ.
٧ ـ آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه.
٨ ـ الحياةُ الزّوجيّةُ السّعيْدَةُ، قَوَاعِدُ وَحُقُوقٌ وَعِلاجٌ لِلْمُنغّصاتِ.
٩ ـ عِلْمُ تَعْبِيرِ الرُّؤَى، بَحْثٌ تَأْصِيْلِيٌّ عِلْمِيٌّ تَطْبِيقِيّ.
١٠ ـ الْمَعِيْنُ الْجَارِي في اسْتنباطِ الفَوَائِدِ واللطَائِفِ مِنْ صَحِيْحِ الْبُخَارِي.
١١ ـ مَنْهَجُ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ الصَّالحِ فِي الْتَّعَامُلِ مَعَ فَتَاوَى الْمُفْتِينِ والرَّدِّ عَلَى الْمُخْطِئِين.
١٢ ـ تَهْذِيْبُ كِتَابِ الْمُوَافَقَاتِ لِلْإِمَامِ الشَّاطِبي، مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.
١٣ ـ مَجالسُ شَهْرِ رَمَضَانَ.
١٤ ـ قِصَصِي مَعَ الْمُلْحِديْن والْمُشَكِّكِيْن والْمُوسْوِسِيْن، معَ بَيَانِ طُرُقِ إقْنَاعِهم وَهِدايَتِهم.
١٥ ـ الْمَسَائِلُ الْمُهِمَّةُ فِي التَّجْوِيدِ والْأَحْرُفِ السَّبْعةِ.
١٦ ـ عِبَاراتٌ أثَّرَتْ عَلَيَّ وَغَيَّرَتْ في حَيَاتِي.
١٧ ـ عَبْقريَّةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ.
١٨ ـ تَقريبُ فَتَاوى ورسائل شَيْخِ الإسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ.
١٩ ـ بَوَّابَةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ.
٢٠ ـ صِنَاعَةُ طَالِبِ عِلْمٍ مَاهِرٍ.
٢١ ـ صِنَاعَةُ خَطِيبٍ مَاهِرٍ.
٢٢ ـ الْأُنْسُ بِاللّه تَعَالَى.